التوقيعات المشرقية والأندلسية دراسة موازنة في المقاييس البلاغية والحجاجية

دكتور

شوزان نشأت عبدالرازق عبدالاله

مدرس البلاغة والنقد بقسم اللغة العربية كلية الآداب

قنا – جامعة جنوب الوادي

الملخص

التوقيعات من فنون النثر العربي المرتبطة بتطور الكتابة، والتوقيع عبارة بليغة موجزة يكتبها الحاكم أو من ينوب عنه للرد على الرسائل الواردة إليه وقد يكون التوقيع إبداعًا أصيلاً من قِبل الموقّع، أو آية قرآنية، أو حديثًا نبويًّا، أو مثلاً سائرًا، أو حكمة، أو بيت شعر، بشرط أن يكون ملائمًا للقضية التي وقِع فيها.

ويهدف البحث إلى إلقاء الضوء على المقاييس البلاغية والحِجاجية التي تزخر بها نصوص التوقيعات المشرقية والأندلسية، وقد اقتضت طبيعة البحث استخدام المنهج الوصفي والبلاغي التحليلي، وخلص البحث إلى وجود علاقة تأثير وتأثر بين التوقيعات الأندلسية ونظيرتها المشرقية

كما تبين اعتماد فن التوقيع على الإيجاز بنوعيه (القِصر والحذف)، وألوان أخري كالسجع والجناس والطباق والمقابلة، وقد يجتمع في بنية التوقيع الواحد عدة فنون بلاغية مؤكدة على خبرة صاحب التوقيع وثقافته. ولم تأت النصوص المقتبسة من القرآن والحديث، والنصوص المتضمنة من الشعر والأمثال والحكم في التوقيعات لمجرد الزينة والزخرفة؛ بل كانت آليات حجاجية اعتمدها الموقعون لتدعيم قناعاتهم ومواقفهم وإفحامًا لخصومهم، وعيًا منهم بقيمتها في الإقناع والتأثير، فكما جاءت التوقيعات لتتوخي الإيجاز والإمتاع، فإنها استهدفت أيضًا التصوير والإقناع.

الكلمات المفتاحية: التوقيعات، الحِجاج،المقاييس البلاغية، الموازنة، الاقتباس.

شوزان نشأت

قسم اللغة العربية، كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، جمهورية مصر العربية

shuzannshat@art.svu.edu.eg

Abstract:

Autography is one of the Arab prose arts associated with the development of writing. Autograph is a brief rhetoric phrase, written by a ruler or his representative in response to the messages submitted to him. An autograph may be an original creation by the person who made such autograph, a qur'anic verse, a prophetic hadith, a notable saying, proverb or a line of poetry, provided that it must be appropriate for the question in which it has been made. This research aims to shade light on the rhetoric and arguments metrics contained in the Oriental and Andalusian Autographs. The nature of this research required use of the descriptive and analytical rhetoric approach. The research has concluded to presence of two-way influence relation between the Andalusian Autographs and their Oriental counterparts. It has been turned out that Autography depends on brevity with its two types (Restriction and Elimination), along with another figures such as assonance, anaphora, antithesis and opposition. Several rhetorical arts, emphasizing the autographer's experience and culture, may meet in a single autography structure.

Texts quoted from Qur'an, hadith, poetry, sayings and proverbs have not been included in the autographs for merely ornament and decoration, but were argument mechanisms adopted by the autographers to support their convictions and positions and in confutation of their opponents, being conscious of their value in persuasion and influence. As autographs have been used to seek brevity and delight, they also targeted depiction and persuasion.

Keywords: Autographs, Arguments,Rhetoric Metrics, Balancing, Quotation.

Chauzan Nashaat

Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Qena, South Valley University, Arab Republic of Egypt.

shuzannshat@art.svu.edu.eg

المقدمة

بسم الله، والحمد لله حمدًا يُوافي نعمه ويُكافئ مزيده، وصلي الله وسلم علي أشرف مخلوقاته محمد وآله وأصحابه وبعد:

تتمتع اللغة العربية بقدر كبير من أشكال نثرية متعددة، وألوان من الكتابة الأدبية، كفن الخطابة، والمقامة، والرسالة، والوصية، والأمثال. وللتوقيعات مكانة عالية في أدبنا العربي عامة والنثر الفني خاصة، وتحتاج للتوقف عندها؛ للكشف عمّا تزخر به من معانٍ وصور وتراكيب وأساليب بلاغية، لا تزال غامضة في نصوصها، ولم يُكشف عنها بعد.

هدف الدراسة:

لا شك أن دراسة الخصائص البلاغية في "التوقيعات" من الدراسات الشائقة في البحث البلاغي؛ حيث تهدف هذه الدراسة إلي بيان حقيقة التوقيعات الأندلسية، وهل ثمة تباين بينها وبين نظيراتها في المشرق من حيث الخصائص والبنية التركيبية، والذي دفعني لكتابة هذا البحث بلوغ بعض الأعلام في فن التوقيع في المشرق والأندلس مبلغًا عظيمًا من الزخرفة والتنميق والعناية بألوان البديع والحلي اللفظية من جناس وسجع.

فليس من همنا في هذا البحث أن نتعقب تاريخ فن التوقيعات في الأدب العربي، لنرصد أنواعه وأعلامه وخصائصه الموضوعية، فذلك أمر لا يتسع له هذا البحث، فوق أنه ليس من غاياته، إنّ ما نريد تأكيده أن هذا اللون الأدبي قد اشتمل على كثير من الخصائص البلاغية

والحجاجية. كما توقفنا دراسة التوقيعات من جانب آخر على طبيعة المرجعيات المعرفية والثقافية للخلفاء والأمراء والملوك والأدباء والكتّاب ومدي إلمامهم بفنون البلاغة، ومن ثَمَّ نتعرف على المكانة التي يحتلها فن التوقيعات بين فنون الكتابة النثرية.

أهمية الدراسة:

أما عن أهمية دراسة فن التوقيعات فإنها ذات قيمة تاريخية وحضارية كبيرة، وفيها فوائد لغوية كثيرة فهي بمنزلة معجم يمكننا أن نستخرج منها التعابير والمصطلحات الفنيّة، وفيها ما يدلنا على مبلغ رقي الكتابة حيث وصلت بعضها إلى درجة عالية من حيث المستوي البلاغي.

وتظهر القيمة الأدبية للتوقيعات في تعدد مضامينها الاجتماعية والسياسية والنقدية والتاريخية، ومدي قدرة أصحابها على تنوع مشاربهم بين خليفة أو وزير أو أمير علي التعبير عن المعني الوفير في إيجاز، هذا إلى جانب أنها تلتقي مع الحكمة الصائبة الصادرة عن عقل وتجربة مما يضفي عليها طابع الذيوع والخلود.

وقد اكتفت الكتب التي تؤرخ لفن التوقيعات بدراستها بشكل موجز حيث اكتفت بالتعريف لفن التوقيع والإشارة إلى بعض نماذجه، وأغفلت الحديث عن خصائصه البلاغية التي ميزت أسلوب كاتب عن آخر، كما اكتفت بذكر جماعة معدودين من كتّاب هذا الفن. فلم تنل التوقيعات نصيبًا كافيًّا من الدراسة البلاغية التحليلية لنصوصها، فضلاً عن إغفال المناسبات التي أمليت فيها كثير من التوقيعات.

لذا يحاول البحث استعراض الخصائص البلاغية وآليات الحجاج عند أعلام الموقعين المشهورين من أهله في المشرق والأندلس.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة الموضوع استخدام المنهج الوصفي والمنهج البلاغي التحليلي، حيث اهتم البحث بدراسة نماذج من التوقيعات لبعض الموقعين لمعالجة أساليبهم ومعرفة السمات البلاغية الغالبة على توقيعاتهم والفنون البديعية المميزة لها. مع الاستعانة بالكتب البلاغية، ومصادر الأدب النثري، كالعقد الفريد لابن عبدربه، والحيوان للجاحظ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي، وتاريخ آداب العرب لجورج زيدان، والأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، للدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي، والفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف، فضلا عن الدراسات والأبحاث والمجلات العلمية التي تعرضت لفن التوقيعات.

الدراسات السابقة:

لم أقف من بين ما وقفت عليه من دراسات في فن التوقيعات– علي كثرتها – علي دراسة تختص بعقد موازنة بين فن التوقيعات في المشرق وفن التوقيعات في الأندلس، من حيث دراسة المقاييس البلاغية المميزة لكلٍ، وكذلك آليات الحِجاج التي استخدمها الموقعون في نصوص التوقيعات، وبنية التوقيع ؛ ولكن ثمة دراسات تناولت كلا منهما علي حدة، منها بحث بعنوان "التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأس

الموضوعية وقواعد الفن" للدكتور محمود صبحي سيد أحمد شاهين، وقد أشار فيه إلي تأخر التوقيعات الشعرية في الظهور عن نظيراتها المشرقية، وبعض الدراسات قامت على مجرد الجمع والحصر لنصوص التوقيعات، خاصة أن التوقيعات من الفنون التي توزعت بنيتها على مصادر أدبية وتاريخية مختلفة، وبعض الدراسات لفن التوقيعات قامت علي تطبيق بعض الألوان البلاغية كدراسة فن الطباق، أو التقديم والتأخير، أو الإيجاز ومنها دراسة بعنوان:التوقيعات من المنظور البلاغي،للباحث: حسن بنيخلف، بحث منشور في مجلة عالم الفكر بالكويت، العدد١،المجلد٤٤،لسنة٢٠١٥م وهدف الباحث من دراسته إلي إبراز السمة الحجاجية لفن التوقيعات، وبيان مظاهرها وآلياتها ووظائفها،وبحث بعنوان:طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، للباحث: د. عامر محمود ربيع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها،جامعة مؤتة،مج١٧،ع٣، لسنة٢٠٢١م وقد خلصت الدراسة إلي أن الصور التشبيهية والاستعارية في التوقيعات الأندلسية لم ترد لذاتها ؛ بل كان غرضها الإقناع والتأثير النفسي، كما توقف الباحث عند أبرز الروابط الحجاج في هذه التوقيعات مثل الواو ولام التعليل وثم والفاء ودورها في تحقيق الغاية الحجاجية في النص...إلخ

ومن المراجع التي اهتمت بذكر عدد كبير من التوقيعات كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه، و كتابا "خاص الخاص" ويتيمة الدهر" للثعالبي، وتاريخ ابن خلدون، ومن أبرز المقالات التي كتبت في هذا الموضوع

مقالة بعنوان "قراءة في فن التوقيعات العربية وإيجازه قراءة أنموذجية للعصور المختلفة" للباحث أحمد رفيع، منشور في مجلة أقلام الهند السنة الثالثة، العدد: الثاني (أبريل- يونيو ٢٠١٨م)، ومقالة لصلاح عبدالستار محمد الشهاوي بعنوان "التوقيعات الأدبية فن إسلامي خالص" وقد نشرت في مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم دي وبند، رمضان – شوال ١٤٣٤ هـ = يوليو – سبتمبر ٢٠١٣م، العدد: ٩-١٠، السنة: ٣٧ أشار فيها الباحث إلى نشأة التوقيعات وأهميتها وأنواعها، ومن هذه الدراسات أيضًا دراسة بعنوان: "بلاغة التوقيعات في العصر العباسي" للباحثة: عايدة عبدالحفيظ محمد، وهي رسالة ماجستير بآداب الزقازيق ١٩٩٣م، وقد تناولت الباحثة: راحيلة خالد قريشى "فن التوقيع" في بحث بعنوان:"التوقيعات في النثر الفني في العصور الإسلامية والعباسية" لعام ٢٠١٦م، وقد تناولت فيه تعريف هذا الفن وتطوره وأنواعه، مستنتجة بأن هذا الفن يؤثر في السياسة والأدب.

وهذه الدراسات جميعها تؤكد قيمة التوقيعات في الدرس الحديث، وقد انصب جهدي في هذا البحث على بيان الخصائص البلاغية والحجاجية المميزة لفن التوقيعات في المشرق ومدى تأثر التوقيعات الأندلسية بها، وأوجه التباين الواضحة.

فقد احتوت التوقيعات على وفرة من الخصائص البلاغية منها ما هو تابع لعلم المعاني كالإيجاز بنوعيه، والتقديم والتأخير، والخبر، والإنشاء لا سيما الإنشاء الطلبي كالأمر والنهي والاستفهام التعجبي، كما اعتمدوا

في توقيعاتهم الشعرية على التضمين، مع كثرة المقابلات والاعتماد بكثرة على السجع والاقتباس كآليات للحجاج والإقناع.

وتخيرت العصرين الأموي والعباسي لدراسة التوقيعات فيهما، لأنهما ميدان رحب لتوقيعات متنوعة من حيث الموقعين كالخلفاء والوزراء والكتّاب والشعراء، ومن حيث التوقيعات نثرية أو شعرية، ومن حيث الموضوعات والخصائص البلاغية.

وعليه قام البحث على ثلاثة محاور جاءت كالآتي:

المحور الأول: التوقيعات المشرقية والأندلسية وبلاغة الإيجاز (العمق اللفظي)

- الإيجاز وبنية التوقيعات
- بلاغة إيجاز القصر
- بلاغة إيجاز الحذف

المحور الثاني: من المقاييس البلاغية المميزة للتوقيعات المشرقية والأندلسية

- بلاغة التضاد (الطباق – المقابلة) في فن التوقيعات
- بلاغة الجناس في فن التوقيعات

بلاغة السجع والتوازن الجملي في فن التوقيعات

المحور الثالث: الاقتباس والتضمين وآليات الحِجاج في التوقيعات المشرقية والأندلسية

- التوقيع بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبلاغة الاقتباس

- التوقيعات الشعرية وبلاغة التضمين
- التوقيع بالأمثال والحكم وبلاغة التلميح

ولا يفوتني أن أعقد تمهيدًا أرصد فيه مفهوم التوقيعات لغة واصطلاحًا، وعوامل ازدهار هذا الفن النثري وحاجة المجتمع إليه، وأبرز صور التوقيعات التي تأتي عليها، وأبرز الأعلام الموقعين.

ثم ختمت البحث بخاتمة اشتملت على أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال المعايشة لفن التوقيعات. أسأل الله أن يوفقنا، ويجنبنا الزلل، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولي ونعم النصير.

التمهيد

تعد التوقيعات من أرفع الفنون الأدبية، ولا تقل أهمية عن فن الخطابة والكتابة والرسائل والوصايا والمقامات، هذا الفن الذي عُرف عند الفرس واليونان والهنود والصين، غير أن العرب قد حافظت على قدر كافٍ من موروثها من التوقيعات.

والتوقيعات فن نثري إنشائي من فنون النثر العربي ظهر في عهد الخلفاء الراشدين، ومارسه في العصر الأموي الأمراء والولاة حتى ازدهر في العصر العباسي، الذي ازدهرت فيه كثير من الفنون النثرية الأخرى.

وانتشرت التوقيعات بين الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش، حتى خصص لها ديوان عرف ب "ديوان التوقيعات" فأقبل عليها كثير من الكتّاب والأدباء.

أولا: مفهوم التوقيعات لغة واصطلاحًا:

التوقيع لغة "تفعيل" وهو مصدر للفعل الثلاثي المضعف "وقع" وجذره الثلاثي المجرد "وقع" الدال في عمومه على سقوط الشيء ووقعه، يقال وقع الشيء وقوعًا فهو واقع، والواقعة: القيامة لأنها تقع بالخلق فتغشاهم.

ومواقع الغيث: مساقطه، ومنه التوقيع، وهو أثر الدَّبَرِ بظهر البعير، ومنه التوقيع: ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه.(١)

يقول الزبيدي: " فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كُتِبَ الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه"(٢).

وحدد الخليل بن أحمد من معاني التوقيع في الكتاب: "إلحاق شيء فيه، وتوقعتُ الأمر: أي انتظرته"(٣)

وجاء في المعجم الوسيط في معني التوقيع: "وقّع في الكتاب: أجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة وحذف الفضول، والتوقيع ما يعلقه الرئيس علي كتاب أو طلب برأيه فيه."(٤) وقد ذكر الزمخشري المعاني السابقة وأضاف المعاني المجازيّة للكلمة فقال: "ومن المجاز حافر موقع:

(١) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ٦/١٣٣-١٣٤، ولسان العرب، لابن منظور، دار المعارف – القاهرة، ت: مجموعة من المحققين، ص ٤٨٩٦

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، ت: مجموعة من المحققين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، ٢٢/٣٦٠.

(٣) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (عمرو بن تميم)،ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال ، ٢/١٧٧، وانظر الصحاح، للجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط. رابعة ١٩٩٠م، ٣/١٣٠٣.

(٤)المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص ١٠٥٠.

وقعته الحجارة، ووقعت الدابة بكثرة الركوب... وإنه لموقع الظهر. ووقع في كتابه توقيعًا."(١)

وعرفه البطليوسي بقوله: "وأمّا التوقيع فإن العادة جرت بأن يُستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر ونهي، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه."(٢)

وترجع سبب تسمية هذا الفن إلى ما يوقعه الخليفة أو عماله على الرقاع التي ترد حاضرة الخلافة بطلب أو شكوى أو مظلمة.(٣)

وقد سميت بالشكاوى والظلامات بالقصص؛ لأنها تحكي قصة الشاكي أو المتظلم، وسموها بالرّقاع تشبيهًا لها برقاع الثياب.(٤)

وجاء في صبح الأعشى للقلقشندي بأن التوقيع هو: "الكتابة على الرِقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدث في المظالم."(٥)

---

(١) أساس البلاغة، للزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط. أولي ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ٣٥٠/٢.

(٢) الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب، للبطليوسي (لأبي محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد)، ت: مصطفي السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ١٩٥/١.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل مهندس، مكتبة لبنان- بيروت، ط. ثانية ١٩٨٤م، ص ١٢٧.

(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، دار المعارف- القاهرة، ط. ثامنة ١٩٦٦، ص٤٨٩.

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري)، دار الكتب العلمية -بيروت، ١٤٥/١.

مما سبق يتبين أن التوقيعات أثر يحدثه الموقع. وأن التوقيعات كان يتولاها الخليفة بنفسه في بادئ الأمر للفصل في المظالم وغيرها. وقد يتولاها أحد الكتاب بين يدي الخليفة يتلقاه منه بأوجز عبارة.

التوقيعات اصطلاحًا:

اصطلح أهل الأدب على أن التوقيع: "فن بليغ من فنون النثر، ولون رائع من ألوان الكتابة، وهي عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير، أو الوزير في أسفل الكتب الواردة إليه، بإبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكاوى، أو يقدم له من رجاء، أو يُستشار في أمر."(١)

وفي هذا النص يشير الدكتور عبد المنعم خفاجي إلي الصلة التي تربط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي فقال: "والمناسبة بينه وبين المعني الاصطلاحي، أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة"(٢)

وقد ورد في تاريخ ابن خلدون: "ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع علي القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإمّا أن تصدر كذلك، وإمّا أن يحذو الكاتب علي مثالها في

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل- بيروت، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، ص٣٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٢٠.

سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه."[١]

وعرفها الدكتور شوقي ضيف بقوله: "التوقيعات عبارات موجزة بليغة، تَعوَّد ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يُقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكواهم، وحاكاهم خلفاء بني عباس ووزراؤهم في هذا الصنيع، وكانت تشيع في الناس ويكتبها الكتَّاب ويتحفظونها، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكي من قصة الشاكي وظلامته، وسموها بالرقاع تشبيهًا لها برقاع الثياب."[٢]

أبرز الخصائص المميزة للتوقيعات:

وكان الكتّاب يتنافسون في التوقيعات، ويتبارون في أقصي الغاية فيه، حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز، وقوة التعبير، وجمال التصوير، وشدة التأثير، ولطف الإشارة، وكانت توقيعاتهم أحيانًا مثلا أو حكمة، أو آية من القرآن أو حديثًا مأثورًا عن رسول الله-صلي الله عليه وسلم- أو بيتًا من الشعر، وكان الأدباء الناشئون يحفظونها أو يرونها

(١) تاريخ ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر -بيروت، ط. أولي ١٤٠١ه-١٩٨١م، ٣٠٦/١

(٢) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ص٤٨٩.

ويعنون بجمعها، وقد يبذلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهمًا.

ومما سبق يتبين أن التوقيعات قطع أدبية منثورة في أذيال وحواشي الرسائل والدواوين. وأنها تأتي في الغالب من جهة أعلي لجهة أدني فيكتبها الحاكم أو من له الأمر والنهي. كما يتبين أن التوقيعات فن كتابي لا يعتمد على المشافهة كفن المواعظ والخطابة؛ ولأنه فن كتابي فلابد أن يُكتب بطريقة تشتمل على فنون البلاغة والفصاحة. لأن التوقيع يعبر عن ثقافة موقعه وخبرته.

كما يتبين أن التوقيع فن أدبي وليد المجتمع؛ لأن التوقيعات أسهمت في حل كثير من المشكلات الاجتماعية، نظرًا لانتشار الفساد والتظلم من الولاة والبحث في المظالم كان من أهم الأسباب لازدهار هذا الفن؛ نظرًا لحاجة الولاة والحكام إلى الردود السريعة الموجزة على المكاتبات والرسائل.

نشأة التوقيعات وعوامل ازدهارها في العصرين الأموي والعباسي:

تعد التوقيعات فنًا أدبيًا من فنون النثر العربي، وارتبطت نشأتها وازدهارها بتطور الكتابة، إذ بدأ فن التوقيعات مع الخلافة الراشدة وأخذت التوقيعات في الانتشار قليلا في العصر الأموي، والخلفاء في العصر العباسي منهم من كان شاعرًا ومن كان أديبًا فقطفوا ثمار هذا الفن حيث ازدهرت التوقيعات في العصر العباسي وقد أرجع أحد

الباحثين عوامل ازدهار فن التوقيعات في العصرين الأموي والعباسي إلي انتشار الفتوحات الإسلامية، وانتشار التعليم والكتابة، فضلا عن حاجة الولاة إلي الردود السريعة علي مكاتباتهم لأهميتها واهتمام الناس بالتوقيعات وولوعهم بها وحرصهم علي اقتنائها.

وتشدد بعض الولاة، وانتشار الفساد في بعض المناطق، وأخيرًا ظهور الكثير من الكتَّاب في بلاط الخلفاء والحكام ومقدرتهم على التأليف في حياتهم الأدبية، ومن هؤلاء جعفر بن يحيي والفضيل بن سهل، وغيرهم كثير.(١)

وينسب الباحثون(٢) بداية فن التوقيعات إلي الخليفة الراشد أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- عندما بعث إليه خالد بن الوليد من دومة الجندل يطلب أمره في العدو، فوقع له: "**ادنُ من الموت توهب لك الحياة.**"

و تروي بعض كتب الأدب(٣) أن أول توقيع كان للخليفة الراشد عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- و ذلك حين كتب له الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- يستأذنه في بناء فقال له عمر: "**ابن ما**

---

(١) النثر الفني في العصر العباسي، هاشم مناع ياسين، دار الفكر العربي- بيروت١٩٩٩م، ط. أولي ص٢٢٣.

(٢) فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، د. حمد بن ناصر الدخيل، ص١١.

(٣) انظر في باب توقيعات الخلفاء: العقد الفريد لابن عبد ربه، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. أولي ١٤٠٤ه، ٢٨٧/٤

يكنك من الهواجر وأذي المطر" وفي رواية أخري: "**ابن ما يستر من الشمس ويكن من المطر**" في حين أن الدكتور شوقي ضيف يعود ببدايات فن التوقيع إلي الفرس، حيث يقول في تعريف فن التوقيع: "والتوقيعات هي عبارة موجزة بليغة، تعود ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا بها علي ما يُقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وحاكاهم خلفاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنيع"(١)

وهكذا يبدو أن مصطلح التوقيع قد اكتسب معنًا أدبيًّا وإداريًّا منذ عصر صدر الإسلام؛ نظرًا لضرورة هذا الفن ومناسبته لظروف المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت خاصة مع شيوع الكتابة؛ ولكن لم ينضج هذا الفن ويشتد عوده إلا في عصر نفوذ الخلفاء، ففي عصر بني أمية اعتاد كل خليفة أموي أن يوقع على الرسائل التي ترد إليه بعد اطلاعه على مضمونها، وقد اتبعوا الإيجاز للتوقيع بكلمات متوازنة وألفاظ متناسبة دون لبس أو غموض.(٢)

ولم يستحكم فن التوقيعات ويقوي إلا في العصر العباسي حيث تنافس الكتّاب والأدباء في إجادته وتحسينه، وخصص له ديوان خاص به، ونبغ فيه كثير من خلفاء بني العباس، وعديد من وزراء دولتهم.

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، ص٤٨٩.

(٢) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٥/١، وانظر: الوزراء والكتّاب، لابن عبدوس الجهشياري، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي- مصر، ط. أولي١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م، ص٢١٠-٢١١

والحقيقة أن العصر العباسي زخر بفنون متنوعة شعرًا ونثرًا(١)، وكان من بينها فن التوقيع الذي تعود كثير من الدارسين أن يدرسوه في الجانب النثري، لارتباطه بالكتابة، واتصاله بفن الرسائل من حيث المضمون، في حين تنوعت التوقيعات الشعرية وتعددت بتعدد أغراضها وموقعيها، واشتملت على موضوعات كالإخوانيات، بما تشتمل عليه من صداقات وتهنئات واعتذارات وعتاب وشكوي، وكلها معانٍ اجتماعية، كما اشتملت التوقيعات الشعرية على الهجاء والظرف والفكاهة، والنقد، والنصح، والحكمة.

وبعضها جاء ردًا على المستشفعين وطالبي العفو، والوشاة، والمتظلمين.

إن ارتباط التوقيعات بفن الإيجاز هو ما يوضح لنا قيمتها البلاغية بين الأجناس الأدبية الأخرى؛ حيث كان الإيجاز سمة للغة العرب.

وقد ظهر في العصر العباسي لون آخر أضيف إلى التوقيعات خاص بالأوامر والمراسم التي يصدرها السلطان لتعيين الملك أو الوزير أو الوالي، وقد أورد القلقشندي نماذج منها بعضها امتاز بطوله حتى تجاوز أربع صفحات.(٢)

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ص٤٩٠، وانظر: التوقيعات الشعرية في العصر العباسي دراسة موضوعية فنية، د. محمود صبحي شاهين، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية- الزقازيق، العدد ٣٩، لسنة ٢٠١٩م، ص٧٥٨.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندى،٣٦/١٢، ١٣/١٣-٤٦.

لذا فالتوقيعات بهذا المعني لا تعد توقيعات أدبية لافتقادها عنصري البلاغة والإيجاز، ولكنها تعد من الكتابة الديوانية أو النثر التاريخي.(١)

من الأعلام المشهورين في كتابة التوقيعات:

ومن الأعلام الموقعين جعفر بن يحيي البرمكي، والفضل بن سهل وسيف الدولة الحمداني والصاحب بن عباد والمعتمد بن عباد، وظلت التوقيعات حتى أيام هارون الرشيد، حيث كثرت التوقيعات فأصبحت تُناط بوجه عام بالكتّاب. وتطور مفهومها في العصر العباسي حتى وضعت لها القواعد، وعُينت لها الأقلام.(٢)

الصور التي ترد عليها التوقيعات العربية:

الصورة الأولي للتوقيعات أن يَكتُب الموقع توقيعه من تلقاء نفسه كما يراه مناسبًا خلال صياغته ومضمونه كتوقيع عمر بن الخطاب حين وقع لعمرو بن العاص فقال: " **كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك**"(٣) ومنه توقيع يزيد بن معاوية والذي يقول: " **وإلي عبيد الله بن زياد: أنت أحد أعضاء ابن عمك، فاحرص أن تكون كلها**".(٤)

---

(١) انظر: فن التوقيع ومنزلة الصاحب بن عباد فيه، بحث منشور في مجلة العميد، لمجموعة من الباحثين، موسي عربي وزهراء فتاح هاشمي وداوود رضا، لسنة ٦، مج٦، ع٢٢ لعام٢٠١٧م، ص٣٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨٣.

(٣) العقد الفريد، ٢٨٧/٤.

(٤)المرجع نفسه، ٢٨٩/٤.

ووقع هارون ما نصه: " و**إلي محفوظ صاحب خـراج مصـر: يـا محفوظ، اجعل خرج مصر خرجًا واحدًا، وأنت أنت** "[١]

فنصوص التوقيع هذه لم تكن ردًا على رسالة أو رقعة رُفعت للموقع.

أما الصورة الثانية للتوقيع فهي أن يكون التوقيع ومضمونه ردًا على كتاب مرسل، كما في نص التوقيع المنسوب إلي عمر بن عبـد العزيـز حيث كتب بعض العمال إليه يستأذنه في (توسعة) مدينته، فوقـع أسـفل الكتاب:" **ابنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم** " وهذا النوع من التوقيعات هو الغالب.[٢]

نشأة التوقيعات الأندلسية:

نقل العرب إلي الأندلس جميع علومهم وفنـونهم ومنهـا الرسـائل والتوقيعات غير أن التوقيعات ظهرت متأخرة بعد أن كان فن التوقيعات في المشرق العربي قد استقر في العصرين الأموي والعباسـي. وبعـد انتظام الحياة في الأندلس علي يد عبد الرحمن الداخل، فقد سـعي إلـى تعويض ما فقده الأمويون في المشرق.

(١) المرجع السابق، ٤/ ٢٩٧

(٢) المرجع السابق،٤/٢٩٠

فكانت الكتابة الديوانية مظهرًا من مظاهر بسط السلطة، وكان عبد الرحمن الداخل ممن اشتهروا بالفصاحة والبلاغة والتوقيعات الحسنة البليغة.

وقد حافظ فن التوقيع على مكانته الأدبية عند الأندلسيين طوال مدة الحكم الإسلامي، فعصر بني أمية في الأندلس كان عصر ازدهار فن التوقيعات.

وقد مثل فن التوقيعات في الأندلس جانبًا من بلاغة الأدباء والحكام والولاة في مجال النثر، فكان التوقيع وسيلة للتعبير عن مواقفهم من الأشخاص ورجال الدولة والقضايا المجتمعية، أما اعتماد الشعراء عليها والكتّاب فكان لغرض إظهار براعتهم الأدبية.

هذه التذييلات التي كتبت في أعقاب الرسائل أو على ظهرها قد تكون من إنشاء الحاكم نفسه؛ ونظرًا لضيق وقته، وكثرة الرسائل التي لازمت فن التوقيع لمدة طويلة، فكان التوقيع أشبه بالبرقية من هذه الناحية.

من أعلام فن التوقيعات في الأندلس:

ومن أشهر أعلام الموقعين الأندلسيين أبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة، وأبي عبد الله بن أبي الحسين، وأبي العباس الجراوى، والمعتمد بن عباد، وعبد الله بن سعيد السلماني والد لسان الدين الخطيب، وهند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي. "قال أحمد بن محمد الرازي: كان الأمير عبد الرحمن مقدم الطبقة في البلاغة، مطبوعًا في الكتابة، مقتدرًا على ما حاول من سني البيان المنشور والمنظوم، مؤثرًا

لمن يحسنهما، مقرباً بوسيلتهما، وكان له التوقيع الوجيز والقريض المستحسن".(١)، فلم تقتصر التوقيعات الأندلسية على الرجال فقط، ولم تقتصر على الأدباء والكتاب، بل كان للحكام والوزراء والأمراء نصيبًا كافيًا منها.

كما كانت للأمير عبد الله بن محمد المرواني توقيعات حسنة ووصفه صاحب أخبار مجموعة، قائلا: "ولعبد الله الأمير توقيعات بليغة، وأشعار بديعة في الغزل والزهد لا يكاد أن يقع مثلها، أو ينتسب إلى من تقدمه نظيرها"(٢).

من نماذج التوقيعات الأندلسية:

ومن نماذج التوقيعات الشعرية الأندلسية التي جاءت في سياق الإخوانيات توقيع الأمير المعتصم بن صمادح التجيبى وقد أطال الإقامة عنده ابن عمار فكتب إليه: "من الكامل مجزوءا مرفلا"

يا واضحًا فضح السحاب الجون فِي معنى السماح

(١)المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حيَّان القرطبي، ت: د. محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-القاهرة،١٣٩٠ه، ص٢٢٢ وانظر: التوقيعات الشعرية في الأندلس دراسة بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د. محمود صبحي شاهين، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية- جرجا، جامعة الأزهر، العدد٢٤، لعام٢٠٢٠، ١١٥٧٩/١٢- ١١٥٨٠.

(٢)أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، لمجهول، مكتبة المثني - بغداد١٩٦٤م، وطبع في مطبعة ربد- نير بمدريد ١٢٨٤هـ- ١٨٦٧م، ص١٥٨.

ومطابقًا يأتي وُجُوه الجِدِّ مِنْ طُرُقِ المِزَاحِ
أَسْرَفْتَ فِي بِرِّ الضياف فَجُدْ قَلِيلاً بِالسَّرَاحِ

فراجعه المعتصم: " من الكامل مجزوءًا مرفلا "

يَا فَاضِلاً فِي شُكْرِهِ أَصِلُ المَسَاءِ مَعَ الصَّبَاحِ
هَلاَّ رَفَقْتَ بِمُهْجَتِي عِنْدَ التَّكَلمِ فِي السَّرَاحِ
إِنَّ السَّمَاحَ بِبُعْدِكُمْ وَاللهِ لَيْسَ مِنَ السَّمَاحِ(١)

وقد أشار ابن الآبار أن المعتصم راجعه بقوله وهو أشعر منه في الجواب(٢)

وكان المعتصم أشعر؛ لما تشتمل عليه أبياته من الصنعة البديعية كالطباق بين: المساء والصباح، والمقابلة في البيت الأخير، ولا يخفي ما بين كلمتي السماح الأولي- والسماح الثانية من جناس، كما بين المعتصم أثر بعد ابن عمار علي مهجته، كما استخدم أسلوب الحض في الاستفهام المبدوء ب "هلا"(٣)

(١) المغرب في حلي المغرب، لابن سعيد المغربي، ت: د. شوقي ضيف، دار العارف- القاهرة، ط. ثالثة،١٩٥٥م، ١٩٨/٢.

(٢) الحلة السيراء، لابن الآبار، دار المعارف -القاهرة، ط. ثانية ١٩٨٥م ٨٥/٢.

(٣)التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د. محمود صبحي شاهين، ١١٥٤٨/١٢.

ومن النماذج الشعرية التي كانت من توقيع أبي عبد الله بن أبي الحسين الأندلسي

إذا ما المعالي قسمت حاز جلها أبو القاسم السامي النبيه ابن يامن

عجبت له من سابق جاء آخرًا فجاء أمام الخيل نحو الرهائن

فالبيتان توقيع على أبيات كتبها أبو القاسم أحمد بن يامن، مما يدل على أن البيتين لأبي عبد الله؛ لذكر اسم ابن يامن فيهما.

وقد ظهرت أبيات شعر في التوقيعات عُرفت بالمجاوبات يرد فيها الموقع على أبيات شعر واردة إليه في رسالة فيلتزم نفس البحر ونفس الروي، والمجاوبات تختلف عن المعارضة والمساجلة. ومما تتميز به التوقيعات الشعرية في الأندلس "التقريرية" فاللغة فيها- غالبا- ما تكون مباشرة بعيدة عن الإشارة والإيحاء، وقد أرجع أحد الباحثين (١) السبب في ذلك إلى صدور التوقيعات عن ذوي السلطان، حيث جاءت توقيعاتهم الشعرية أقرب ما تكون إلى قرارات واضحة ومحددة وصريحة، فلا يهم الموقع إلا الفكرة لذا جاءت بعيدة عن الغموض والإيحاء.

(١) انظر: التوقيعات الشعرية في الأندلس، ص١١٥٨١.

ومن التوقيعات الأندلسية:

ما روى أنه اتخذ أحمد بن عبد الملاك ابنه أبا جعفر وزيـــرًا واستتابه في بعض الأمور فلم يصبر على ذلك واستعفى فلم يعفه وعتب عليه أن يركن إلى الراحة فكتب إليه الابن شعرًا قال فيه:

مـــولاي: في أي وقـــت أنـــال في العـــيش راحـــة

إن لم أنلـــها وعمـــري مـــا أنـــار صـــباحه

وللمـــــلاح عيـــــون تميـــل نحـــو الملاحـــة

وكان راحي ما أن تميل مني راحة

والخطـــب مـــني أعمـــي لم يقـــترب لي ســـاحة

وأنت دوني سور من العلا والرجاحة

فـــاعفني وأقلـــني ممـــا رأيـــت صـــلاحه

فلما قرأ أبوه الأبيات رأى ألاّ فائدة في أن يكلفه بما ليس مهيئًـــا لـــه وقع على ظهر ورقته «**قد تركنا سراح أنسك وألحقنا يومك بأمسك**».

* وكتب – ألفونسو السادس– ملك قشتالة إلي يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في الأندلس يتوعده ويتهدده فوقع يوسف في كتابه ببيت أبـــي الطيب المتنبي:

وَلا كُتُبَ إِلّا المَشرَفِيَّةُ والقنا وَلا رُسُلٌ إِلّا الخَميسُ العَرَمرَمُ

المحور الأول

التوقيعات المشرقية والأندلسية وبلاغة الإيجاز (العمق اللفظي)

تباري الكتّاب في توقيعاتهم ودعوا فيها إلى الإيجاز، وقوة التعبير، وجمال التصوير، وشدة التأثير، ولطف الإشارة، وكانت توقيعاتهم عبارة عن مثل عربي، أو حكمة سديدة، أو آية قرآنية، أو حديث نبوي شريف، أو بيت من أبيات الشعر العربي الفصيح، واهتم الأدباء الناشئون بحفظها وروايتها وجمعها.

لقد كان العرب شديدي الحرص على الإيجاز في لغتهم، وحرصوا على حذف الحرف والكلمة والجملة والجمل إذا وجدوا المعني تامًا بدونها(١).

إذن فالإيجاز صفة بارزة في الكلام العربي؛ لأن اللغة العربية ترتكز علي الجوهر والاقتصاد في القول فنجدها في فنون نثرية متنوعة تعتمد فيها على الإيجاز كالخطابة، والأمثال، والحكم، والمواعظ، وكذلك التوقيعات.

والتوقيعات من الفنون النثرية الكتابية التي تعتمد على الفطرة السليمة والموهبة والثقافة. وقد ارتبطت بنيتها الشكلية بالإيجاز البليغ، فالسمة

(١)انظر في أهمية الإيجاز: فن البلاغة، د. عبد القادر حسين، عالم الكتب- بيروت، ط. ثانية١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م، ص١٤.

الغالبة في فن التوقيعات هي الإيجاز، فالجمل القصيرة أكثر خدمة للغرض، حيث يسهل حفظها وتناقلها بين الأجيال وشيوعها بين الناس.(١)

مفهوم الإيجاز عند البلاغيين وأهميته:

والإيجاز هو التعبير عن المعني بأقل ما يمكن من اللفظ، وقد حدد الجاحظ مفهوم الإيجاز بقوله: "الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة"(٢)

وقديمًا عد أبو هلال العسكري ما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل وهما من أعظم أدواء الكلام.(٣) ويعرف ابن الأثير الإيجاز بقوله: "التعبير عن المراد بلفظ غير زائد، ويُعد الإيجاز والاختصار بمعني واحد"(٤)

علاقة التوقيعات بفن الايجاز:

التوقيع خطاب مؤثر ومقنع، يستند إلى آليات لغوية وبلاغية ومنطقية قصد تحقيق أغراضه ووظائفه التأثيرية والإقناعية؛ لذا يُشترط في صياغة عبارة التوقيع التكثيف الدلالي بالاختصار أو ما يمكن أن يُسمي

---

(١) انظر: قراءة في فن التوقيعات العربية وإيجازه قراءة أنموذجية للعصور المختلفة، للباحث: رفيع أحمد، السنة الثالثة العدد الثاني (أبريل- يونيو ٢٠١٨م)، دراسات ومقالات.

(٢) الحيوان، للجاحظ، دار الكتب العلمية- بيروت، ط. ثانية١٤٢٤هـ، ٣/٤٢.

(٣) الصناعتين (الكتابة والشعر)، لأبي هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران)، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية -بيروت ،١٤١٩ه، ص١٧٣

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر-القاهرة، ٢/٣١١.

بالعمق اللفظي، وهو أن تكون اللفظة مشحونة بدلالات كثيرة؛ لذا يلجأ الموقع أحياناً للمثل العربي، وأحياناً للحكمة، وقد ساعدت القيم البديعية كاتب التوقيع على ذلك، فكانت من أهم أدواته التي اعتمد عليها في إنشاء نص يجمع بين البلاغة والاختصار في لغة مكثفة.

وقد ركز أبو القاسم الإشبيلي في حديثه عن التوقيع على معطيين يتعلقان بطبيعته وسماته، يقول أبو القاسم: وهذا النوع من الكلام مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار وعندما خاطب جعفر بن يحيي البرمكي الكتّاب قال: "إذا استطعم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا " والمقصود من ذلك حضهم على الإيجاز والاختصار.

ومن هذه النصوص يتبين الخصائص البلاغية المميزة لفن التوقيعات وأبرزها الإيجاز وإلي ذلك أشار الدكتور شوقي ضيف عندما تحدث عن خصائص التوقيع من الناحية الفنية فقال:" فتضمن التوقيع الحكم البليغة والرأي الحسن وإسداء النصيحة والموعظة وحسن التوجيه بالقول المقنع، فضلا عن الأمر والنهي والتوجيه من الأعلى مرتبة في الحكم إلي الأدنى مرتبة، وكان من خصائصه الاختصار والإيجاز في التعبير واختيار أحسن الألفاظ المعبرة عن الفكرة والملائمة للحالة، وهذا الفن يتوافق مع العرب وفطرتهم لأنه يقوم علي الإيجاز وهو أعلي مراتب البلاغة "[1]

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ص٤٩٠، وانظر: قراءة في فن التوقيعات العربية وإيجازه، للباحث: رفيع أحمد، بحث منشور في مجلة أقلام الهند، العدد٢، لعام ٢٠١٨م.

لقد عد الباحثون قِصر عبارات التوقيع ميزة من ميزاته المهمة، حيث جعلته أقل عرضة للتحريف والتبديل بسبب سهولة حفظه في الذاكرة، فمثله مثل فن الأمثال في الحفاظ على بنيته اللفظية كما أداها صاحبها. إننا أمام فن يكاد يكون من أصدق الفنون الأدبية تعبيرًا عن حياة العصر الذي نشأ فيه.(١)

يُفهم مما سبق أن الإيجاز في التوقيعات مطلب أصيل بدونه لا يعد التوقيع توقيعًا، فاعتماد التوقيعات على الإيجاز جعلها تجري مجري الأمثال في تدوينها وترديدها وتداولها بين الناس؛ لسهولة حفظها ولتوازن جملها، وفصاحة ألفاظها، والابتعاد عن التكلف.

أنواع الإيجاز في التوقيعات:

لا يصلح أن يكون التوقيع إلا إذا توفر فيه بلاغة الإيجاز، والإيجاز يتنوع في التوقيعات بين إيجاز القِصر وإيجاز الحذف، والغالب في التوقيعات هو إيجاز القصر، والذي يسمي بإيجاز البلاغة، ومن الباحثين(٢) من أرجع ارتباط فن التوقيعات بالإيجاز لطبيعة المضامين

(١) انظر: التوقيعات الأندلسية في عصر الخلافة (٣١٦:٤٢٢)، دراسة موضوعية فنية، د. أحمد محمد عطية عبد الهادي، بحث في مجلة اللغة العربية بإيتاي البارود، ع٣٥، ص٧٦٠.

(٢) قراءة في فن التوقيعات العربية وإيجازه قراءة أنموذجية في العصور المختلفة للباحث: أحمد رفيع، ص١٣

التي تحملها تلك التوقيعات والتي منها الاستعطاف وشكوي الحال والاعتذار، والعتاب، والشكر على النعم، وهذه المواضيع مما يستحسن فيها الإيجاز، لتكون أكثر تأثيرًا في المتلقي، وأكثر تعلقًا بأذهان السامعين.

وقد بالغ بعض الموقعين في عنصر الإيجاز، حتى إن بعضهم اقتصر في بعض توقيعاته على كتابة حرف أو نقطة. ذكر أن الصاحب بن عباد وقع في رقعة بحرف الألف، ووقع في أخري بوضع نقطة، ولا شك في أن ما فعله يُعد من التوقيعات المستملحة، وإن كان الأمر يبدو متكلفًا لا بلاغة فيه.

فأحد السائلين كتب إليه رسالة يطلب من الصاحب بن عباد مالاً فكتب في آخر رقعته:" **فإن رأي مولانا أن يفعل ذلك فعل** " فوقع الصاحب قبل (فَعَل) ألفًا، فصار (أفْعَلُ)، وأما النقطة فإنه وضعها في رقعة على لفظ (يفعل) فنقط الياء من فوقها فصارت (نونا).(١)

ومن أمثلة التوقيعات الموجزة ما وقع به الخليفة الأموي عمر بن العزيز لعامله بحمص في الشام حينما كتب إليه أن مدينته تحتاج إلى بناء حصن لحمايتها من الأعداء: " **حصنها بالعدل والسلام** "

وكذلك ما وقع به أبو جعفر المنصور حين كتب إليه عامله بمصر يذكر نقصان النيل " **طهر عسكرك من الفساد يعطيك النيل القياد**(٢)"

(١)فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، د. حمد بن ناصر الدخيل، بحث منشور في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص ١٥ – ١٦

(٢) المرجع السابق، ص١٦

ومن التوقيعات البليغة والموجزة، ما وقع به المأمون في قصة متظلم من حميد الطوسي أحد قواده " **يا أبا حامد إلا تتكل علي حسن رأيي فيك فإنك وأحد رعيتي عندي في الحق سواء** " ومنه ما وقع به إلى أحد عماله وقد شكاه أهل عمله " **إن آثرت العدل حصلت على السلامة، فانصف رعيتك من هذه الظلامة**" والتوقيعان فيهما حث علي وجوب العدل بين الناس في الحقوق والمعاملات.

فمن التوقيعات ما بلغ الغاية في الدقة والقِصر، حتى منها ما تكون من الفعل والضمير المتصل مثال: التوقيع الذي كتبه زياد بن أبيه " **كفيت** " فقد تظلم إليه شخص، فاقتنع بحقه. ومنها توقيعه في رسالة متظلم " **أنا معك** " وفي رسالة سارق "**القطع جزاؤك** "

ومن التوقيعات التي تألفت من جملتين توقيع عبد الملك في رسالة الحجاج التي شكا فيها أهل العراق قائلاً: " **ابق لهم لحومًا يعقدوا بها شحومًا** "

ومنها ما تكون من ثلاث جمل، مثل توقيع مروان بن محمد إلي أبي هبيرة:

" **الأمر مضطرب، وأنت نائم، وأنا ساهر**[1]

ولنتبين الدقة في اختيار الألفاظ القليلة المشتملة على معانٍ كثيرة نقرأ توقيع أبي بكر الصديق "**ادن من الموت توهب لك الحياة** " حيث يفهم من

(١)انظر التوقيعات السابقة في كتاب: من النقد التطبيقي (قراءات تحليلية ناقدة في أدب الجاهلية والإسلام)، د. عبد المجيد الإسداوي، ص٣٣٣

هذا التوقيع أن الخليفة ينمي في نفوس الصحابة حب الشهادة، مبينًا أن الحياة التي توهب بعدها حياة عظيمة، فبمقدار ملاحقة العدو توهب الحياة للجيش المسلم، وهذا اللون من الإيجاز هو إيجاز القِصَر. ومن أمثلة إيجاز الحذف ما جاء في توقيع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب(١) ردًا علي خطاب وصله من الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ يستأذنه في بناء دار الإمارة وهو في الكوفة، فوقع إليه الخليفة عمر: " **ابن ما يستر من الشمس، ويكن من المطر** " وتقدير المحذوف هو: ابن ما يستر من أشعة الشمس وحرها، ويقي ويحمي من المطر، والإيجاز هنا للتخفيف.

ومنه توقيع معاوية " **عش رجبًا تر عجبًا** " فالمقصود عش سنة بعد سنة لتري أشياء عديدة وغريبة، فتم الحذف من أجل عدم التكرار ليصبح التوقيع أبلغ وأفصح، وأكثر تأثيرًا في المتلقي(٢).

ومما يدل على حرص الموقع على الإيجاز ما قاله عمرو بن مسعدة حين كتب كتابًا إلى عامل فأطال فيه، فأخذه المأمون من بين يديه وكتب:

---

(١) انظر: العقد الفريد، ٢٨٧/٤، ونص التوقيع فيه: " **ابن ما يكنك من الهواجر وأذي المطر** "

(٢) انظر: التوقيع في العقد الفريد، ٤/ ٢٨٨

"**قد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإمّا اعتدلت وإمّا اعتزلت،...** وينسب التوقيع لجعفر البرمكي أيضًا.(١)

وهكذا من خلال فن الإيجاز حلقت التوقيعات في سماء البلاغة متحررة من قيود السياسة والخطابات الرسمية المشحونة بقرارات إدارية واجبة التنفيذ.

وإذا ذهبنا إلي كاتب التوقيع وحاجته للإيجاز لضيق المقام الذي يكتب فيه توقيعه نجد أن أغلب التوقيعات كانت ردودًا سريعة واستجابة من الحاكم لحل مشكلة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، فكانت التوقيعات قرارات تستوجب الإيجاز والسرعة للحفاظ على مصالح الرعية وحقوق الآخرين، فضلا عن أن لغة العرب هي لغة موجزة تكفي فيها الكلمة لتدل على عدة جمل.

يقول ابن خلدون عن شخصية كاتب التوقيعات ومنزلته وما يجب أن يكون عليه: "واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك، ومقاصد أحكامهم، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على

(١) انظر: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، القسم الثاني من الكتاب، ص٣٢٢ حيث ذكر المؤلف مجموعة من التوقيعات في العصر العباسي اشتملت على الإيجاز بنوعيه.

الآداب، والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها"(١)

فالتوقيعات نصوص جمعت بين حسن الصياغة وخطر المضمون، من ناحية وفضل صاحبها وسمو ما يدعو إليه من ناحية أخري. وإذا كان للموقع هذا الدور فإن المتلقي لأدب التوقيعات "تثيره نوازع شتي من الرغبة في المشاركة والتوقيع، وعليه فإن النجاح فيه يخلق لديه نوعًا من الإدهاش والفرح، ويولد عنده مشاعر نفسية مختلطة من: الرضا، والإعجاب، والاطمئنان، مشاعر من أثاره شيء فحرّكه وهزّه ثم شاركه في الوصول إلى نهايته"(٢)

التوقيعات الأندلسية وبلاغة الإيجاز:

ظهرت التوقيعات في الأندلس متأخرة عن نظيرتها في المشرق العربي (في العصرين الأموي والعباسي) ففي أعقاب انهيار الخلافة الأموية في المشرق ومجيء عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس وجلوسه على عرش الإمارة سعي إلى تعويض ما فقده الأمويون في المشرق، وصمم على إرساء أركان دولة لا تقل عن دولتهم في المشرق(٣)

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ٣٠٧/١

(٢) فن الطباق في أدب التوقيعات، د. منيرة فاعور، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد (٣٠)، العدد (٢،١)، لسنة٢٠١٤م، ص١٤٠

(٣) انظر: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ – القاهرة، ط. أولي ١٤٣٢ه _ ٢٠١١م، ص١٦٨

وممن اشتهروا بالفصاحة والبلاغة وكانت له توقيعات حسنة عبد الرحمن الداخل، حيث كان عصر بني أمية في الأندلس عصر ازدهار لفن التوقيعات. ولم يختلف عصر الخلافة الأموية في الأندلس عن عصر الإمارة من جهة الاهتمام بالتوقيعات.(١)

واستمر فن التوقيعات قويًّا إلى عهد ملوك الطوائف فإن التمزق الذي أصاب الأندلس في عهد ملوك الطوائف أضعف ذلك الفن، ومن أبرز الموقعين في تلك المدة: المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، والمعتصم بن صمادح، وفي عصر المرابطين تغلب البربر على الأندلس فتراجع فن التوقيعات غير أنه وجدت توقيعات ليوسف بن تاشفين عربية بليغة، وفي زمن الموحدين نهضت التوقيعات من جديد، أما في عصر بني الأحمر، فقد اهتم ملوك بني الأحمر بتوقيعاتهم بحيث تكون موجزة بليغة، كما كانت عليه في عصر الحكم الأموي.(٢)

ولم تقتصر التوقيعات الأندلسية على الحياة السياسية؛ بل تم توظيف التوقيعات في الحياة الاجتماعية وما يتعلق بشئون الناس ومعاملاتهم. لقد اعتمد الحكام في التعبير عن مواقفهم في كثير من الأشخاص والقضايا كموقفهم من رجال الحاشية على فن التوقيعات.

---

(١) انظر: التوقيعات الأندلسية (نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي)، للباحث: أحمد رفيع، مجلة أقلام الهند، العدد الثالث السنة الثانية يوليو – سبتمبر، ٢٠١٧م، ص٣

(٢) المرجع السابق، ص٤

كما اعتمد عليها الشعراء في إبراز مواهبهم وبراعتهم؛ ونظرًا لضيق وقت الحاكم في الرد على كثير من الرسائل تميزت التوقيعات بالإيجاز.

فمن التوقيعات الأندلسية الموجزة توقيع أبي المطرف عبد الرحمن بن الحكم إلي ابنه المنذر بعد أن كتب إليه يسأله أن يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي يليه ليقيم الجمعة، ويخطب ليحيى رسوم سلفهم، فوقع على ظهر كتابه "**قالت الحكماء: لو كان الكلام من فضة، لكان الصمت من ذهب**" فهذا التوقيع اشتمل على حكمة تضمنت معاني كثيرة.

ومن التوقيعات التي جاءت لتثبت أن الإيجاز كان مقصودًا عند الموقعين أن أمية بن زيد بن عبد الرحمن الداخل كتب كتابا إلى أحد عماله يستقصره فيما فرط من عمله. فأكثر فأطال الكتاب. فلما لاحظه الأمير أمر بقطعه. وكتب بخط يده: "**إن يكن التقصير لك مقدما، فعد الاكتفاء أن يكون لك مؤخرا**".

وقد أشار أحد الباحثين[1] إلى أن التوقيعات الأندلسية اختلفت خصائصها باختلاف الطبقة التي يصدر عنها التوقيع، وباختلاف عصور التاريخ الأندلسي فقد ظلت التوقيعات حتى عصر ملوك الطوائف لا تحفل بالسجع أو المحسنات اللفظية، وكان تركيزها على إيصال الفكرة بلغة سليمة واضحة مع استعمال بعض المحسنات المعنوية كالطباق والمقابلة

(١) انظر التوقيعات الأندلسية: نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي، للباحث: رفيع أحمد، ص٦

والتقسيم، وأما في عصر ملوك الطوائف فقد مالت التوقيعات نحو السجع والبديع بأشكاله المختلفة، مع الإيجاز وتوظيف الموروث الأدبي والديني والتاريخي اقتباسًا وتضميناً وتورية وغير ذلك.

ونتفق مع الباحث فيما ذكره من خصائص للتوقيعات الأندلسية، غير أن البديع مما عول عليه الموقعون في توقيعاتهم كثيرًا فأكثروا من الطباق والجناس والمقابلة وكلها عفوية لا تعتمد على تصنع أو تكلف؛ لأن هذه المحسنات مما تألفها الأذن في البيئة العربية، فظلت أسهمها عالية موفورة الحظ.

وقد اهتم الكتّاب في الأندلس بالزخرفة البديعية متأثرين ببيئتهم المترفة، فاهتموا بالسجع، والتوازن الجملي، والتكرار، وتنميق العبارات.

وذكر أحد الباحثين عند دراسته للتوقيعات الشعرية الأندلسية، أن التوقيعات الشعرية الأندلسية تأثرت- في معظمها- بنظيراتها المشرقية، ومن ثم لا يوجد تباين بين الأندلسيين في توقيعاتهم الشعرية عن توقيعات المشارقة لا موضوعا ولا فنا إلا نادرًا كتجاوز بنية التوقيع الشعري الأندلسي بنية التوقيع الشعري المشرقي، إذ وصل عدد الأبيات الشعرية الموقع بها في الأندلس ثمانية أبيات، في حين لم تتجاوز بنية التوقيع الشعري في المشرق المقطعة الشعرية.(١)

(١) انظر: التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د. محمود صبحي سيد أحمد شاهين، ص ١١٥٩٠

وبالدراسة لنصوص التوقيعات المشرقية والأندلسية لا نجد اختلافًا كبيرًا من جهة الأغراض والموضوعات التي عالجتها التوقيعات، حيث انصبّ الاهتمام في معظمها على النظر في حوائج الناس وشكواهم وتظلماتهم، والتوقيعات الشعرية الأندلسية كانت متضمنة من شعر المشارقة، ولعل هذا يفسر لنا مدي احتفاء المصادر الأندلسية بتوقيعات المشارقة، وعناية الأندلسيين أنفسهم بكل ما تفرزه قرائح المشارقة.

وهو ما صرح به ابن بسام في مقدمة كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" حين قال: "إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع إلى قتادة؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنمًا، وتلوا ذلك كتابًا محكمًا..."(١)

ورغم تأثر التوقيعات الأندلسية بالتوقيعات المشرقية من جهة الموضوعات والأساليب والإفادة من نصوص التراث العربي دون تكلف، وهو ما يؤكد اطلاعهم على مصادر الثقافة المشرقية واستيعابهم تلك الثقافة وتمثلهم لها. إلا أنه وجدت بعض الاختلافات منها الاطالة في بعض التوقيعات للتوضيح والتفصيل في القضية التي يعالجها التوقيع، ولرغبة الموقع في تعديل سلوك الموقع له، وإقناعه بالحجج والبراهين.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنترىنى، ت: د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب –ليبيا – تونس، ط. أولي١٩٨١م، ١٢/١

مثال ذلك أنه رفع أحد المشتغلين بتثمير الخراج للأمير عبد الرحمن بن الحكم أن القنطرة التي بناها جده على نهر قرطبة، لو رسم على الدواب والأحمال التي تعبر عليها رسمًا لاجتمع من ذلك المال العظيم. فوقع الأمير عبد الرحمن علي كتابه مستنكرًا مثل هذا الاقتراح لما فيه من إثقال علي الرعية، موجهًا اهتمامه إلي مجالات الإصلاح الأخرى التي تورث الذكر الحسن مثل بناء المساجد وإصلاحها، وحمله نفقة إصلاح المسجد المجاور له، ونص توقيعه كما يلي: " **نَحن أحْوج إِلَى أَن نُحدث من أَفعَال الْبر أَمْثَال هَذِه القنطرة لَا أَن نمحو مَا خلده آبَاؤُنَا باختراع هَذَا المكس الْقَبِيح فَتكون عائدته قَلِيلَة لنا وَتبقى تَبعته وَذكره السوء علينا وهلا كنت نبهتنا على إِصْلَاح الْمَسْجِد المجاور لَك الَّذِي قد تداعى جِدَاره واختل سقفه وَفصل الْمَطَر مُسْتَقْبل لَكِن يَأْبَى الله أَن تكون هَذِه المكرمة فِي صحيفتك وَقد جعلنَا عُقُوبَتك بِأَن تصلح الْمَسْجِد الْمَذْكُور من مَالك على رغم أَنْفك فَيكون مَا تنْفق فِيهِ مِنْك وأجره لنا إِن شَاءَ الله**".[1] فنلاحظ طول هذا التوقيع عن غيره من التوقيعات التي تميزت بالإيجاز.

(١) المغرب في حلي المغرب، لابن سعيد، ٥١/١

(١) انظر في الروابط الحجاجية بحث بعنوان: طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، د. عامر محمود ربيع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها –جامعة مؤتة، المجلد١٧، العدد٣، لسنة٢٠٢١م، ص٢٨١

وقد اعتمد الموقع على الروابط الحجاجية والتي منها (لكن) والتي قامت بدور التعارض الحجاجي بين ما تقدمها، وبين ما تأخر عنها، فالقسم الأول الذي تقدم هذا الرابط تضمن حجة تخدم نتيجة ضمنية. (١)

وغير قيمة الإيجاز في التوقيعات الأندلسية شاعت قيم بلاغية أخري كصيغ الاستفهام والتعجب والأمر والنهي والشرط، ولم يكن ثمة تجديد في الصور البيانية أو ابتكار، لأن التوقيعات منها ما كان اقتباسًا أو تضمينًا وفي هذه الحالة لا يعدو الموقع كونه ناقلاً لكلام غيره.

ولم تختلف التوقيعات الأندلسية الشعرية عن المشرقية حيث تأثرت بها في اعتمادها علي الإيقاع الموسيقي، وربما كان الاختلاف في بنية التوقيع وعدد الأبيات فيه، يقول الدكتور محمود صبحي: "ومن يمعن النظر في التوقيعات الشعرية الأندلسية يلحظ أن بنية التوقيع تراوحت بين البيت اليتيم أو الدرة والبيتين والثلاثة (النتفة) والمقطعة الشعرية التي هي (دون السبعة) وقد وصلت إلي القصيدة كما في توقيعي عبد الرحمن الداخل والمعتمد بن عباد (ذي القافية الميمية) وأظن أن الموقع قد يلجأ للتوقيع بالبيت المفرد إذا كان من أصحاب السلطة أو الحكم، فيعمد إلي الإيجاز غير المخل، فيكون توقيعه تعجبًا أو سخرية أو استفهامًا أو حكمة... و ربما عمد إلي التوقيع بالبيت المفرد لضيق المقام"(٢)

---

(٢) التوقيعات الشعرية في الأندلس بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د: محمود صبحي سيد أحمد شاهين، ١٢/ ١١٥٨٦.

وقد أشار الدكتور محمود صبحي في موضوع آخر إلى سمات التوقيعات الشعرية في المشرق، والتي بدأت في العصر الأموي علي يد عبد الملك بن مروان وابنه سليمان بن عبد الملك، واتسمت لغة التوقيعات الشعرية بالخطابية التي أسس لها شيوع أساليب الأمر والنهي والاستفهام التعجبي، مع ندرة في الصور الفنية الكلية أو الجزئية، ولم تأت بنية التوقيع على نمط واحد؛ بل جاءت في شكل شطر من البيت، أو بيت مفرد، أو نتفة، أو مقطوعة، وأغلبها كان ردًا على شعر مرسل.(١)

والسمات الحجاجية التي تميزت بها التوقيعات كثيرة منها التعليل وبناء التوقيع على مقدمة ونتيجة، فهذه العلاقة من شأنها أن تدفع الموقع له للإقناع.

فمن التوقيعات الأندلسية التي اعتمدت على أسلوب الشرط ما أورده ابن حيان القرطبي في كتابه "المقتبس في أنباء الأندلس" من توقيع لعبد الرحمن الأوسط، فقد كتب إليه بعض عماله يسأله توليه عمل رفيع لم يكن علي شاكلته، فوقع على ظهر كتابه: "**من لم يعرف وجه مطلبه كان الحرمان أولي به**"(٢) فالعلاقة التي تربط بين الجملتين في التوقيع هي علاقة السبب والنتيجة. فالتوقيع يدل على أن الموقع إليه لم يكن جديرًا

(١) التوقيعات الشعرية في العصر العباسي دراسة موضوعية فنية، د: محمود صبحي سيد احمد شاهين، ص ٧٥٥-٧٥٦

(٢) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حيان القرطبي، تحقيق د. محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤١٥ه – ١٩٩٤م، ص٢٢٢(لجنة إحياء التراث الاسلامي)

بهذه المكانة، فجاء توقيع عبد الرحمن الأوسط مشتملاً على سمة حجاجية أخري عقلية هي الاستعارة ليدحض دعوي عامله التي أقامها علي أهليته للمنصب الذي طلبه " فقد شبه المطلب وما يصبو الإنسان إليه من مكانة بالإنسان ذي الوجه الجميل فحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه (وجه)علي سبيل الاستعارة المكنية "(١)

وكثير من النماذج التي اعتمدت على التعليل للطلب بغية تحقيق السمة الحجاجية في التوقيع، فمنها في المشرق توقيع عمرو بن عبيد حيث تشير قصة التوقيع إلى أن أبا جعفر المنصور كتب إلي عمرو بن عبيد قائلا: "**أبا عثمان أعني بأنصارك فإنهم أهل العدل، وأصحاب الصدق، والمؤثرون له**" فوقع في كتابه: "**ارفع علم الحق يتبعك أهله**"

فالموقع عمرو بن عبيد ليس بخليفة أو أمير، والمنصور يطلب مساعدته "أعني بأنصارك" ويعلل لطلبه إلا أن عمرو بن عبيد لم يقتنع، ونصح المنصور بضرورة التشبث بقيم الحق، لا بالأشخاص، وشخص الحق وجعل له علمًا يرفع وأتي بالطلب على صورة الشرط (ارفع علم الحق / يتبعك أهله)

وهذه العلاقة الشرطية من العلامات الدالة على حجية التوقيع. كما تضمن التوقيع دلالة ضمنية مفادها الوضوح والتمايز بحيث لا يختلط الحق بالباطل، وفي جملة (يتبعك أهله) هو اتباع عن اقتناع مع الاستعداد للتضحية فداء للقيم الجيدة.

(٢) طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، د. عامر محمود ربيع، ص٢٧٧.

المحور الثاني
بلاغة التضاد في فن التوقيعات المشرقية والأندلسية

التضاد أو التقابل نوع من العلاقة بين شيئين، يقف أحدهما في مواجهة الآخر، ويسمي" التقابل الدلالي "وهو بنية جوهرية في تشكيل النص الأدبي تحقق انسجامًا وتماسكًا بين وحداته؛ إذ يتجلى فيها الأثر الدلالي متلبسًا بإيقاع المعني، وملتحمًا به؛ فيبرز طابع المفارقة العميقة التي تدعم بناء النص، وتقوي حبكته الدلالية، وترابط أجزائه من خلال سياقه(١)

والمتأمل لنصوص التوقيعات يجد ظاهرة التضاد تغلب على كثير من الخصائص البلاغية الأخرى، فهل كان الطباق أو التضاد بنوعيه (الطباق والمقابلة) حلية تزينية في التوقيعات، أو ترفًا فكريًّا تعمده الموقعون؟

تقول الدكتورة منيرة فاعور عن وظيفة الطباق في فن التوقيعات هي" وظيفة معنوية تقوم على تصوير طبيعة الحياة تصويرًا دقيقًا، وإبراز حياة الدولة والمجتمع في مختلف الميادين وفي مختلف الموضوعات، فكل توقيع من هذه التوقيعات يصور جانبًا من جوانب تلك الحياة، يمكن استثماره في معرفة كليات ذلك العصر وجزيئاته على حد سواء ".(٢)

---

(١) انظر: البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، مكتبة الرشد- الدمام، ط. أولي١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص٢٥٣.

(٢) فن الطباق في أدب التوقيعات، د. منيرة فاعور، ص١٢٨.

فمن القضايا الجوهرية التي عرضتها التوقيعات، وسعت إلى إيجاد تصور لها: قضية الحياة والموت وأمثلة ذلك: كتب خالد بن الوليد إلي أبي بكر الصديق– رضي الله عنه – من دومة الجندل يستأمره في أمر العدو فوقع إليه: " **ادن من الموت توهب لك الحياة** "(١)

فقد أراد الخليفة أبو بكر – رضي الله عنه – أن ينمي في نفوس الصحابة حب الشهادة في سبيل الله وفي سبيل نصرة الإسلام والمسلمين، ففي شهادتهم حياة عظيمة لهم، وقد يكون في التوقيع توجيه عسكري مفاده أنك بمقدار ما تطلب العدو وتلاحقه تبقي أنت في ساحة الحياة. وهكذا يحقق التضاد قيمًا نفسية وجمالية.

وبالنظر في نصوص التوقيعات نجد من القضايا الحاضرة وبشدة في توقيعات الحكام قضية (العدل والظلم) فقد كتب بعض العمال إلي عمر بن عبد العزيز يستأذنه في مَرَّمَة مدينته، فوقع في أسفل كتابه: "**ابنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم** "(٢) وفي هذا التوقيع إشارة إلى ضرورة اهتمام الحاكم بجوهر الأمور، والطباق يبين عواقب الصراع القائم بين العدل والذي به يرقي المجتمع وبين الظلم الذي يقود الدولة والمجتمع إلى الدمار(٣).

---

(١) انظر: التوقيع في خاص الخاص، لأبي منصور الثعالبي (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، ت: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة –بيروت، د.ت، ص٨٦.

(٢)انظر: التوقيع في العقد الفريد، ٢٩٠/٤، وجمهرة رسائل العرب في عصور العربية، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية –بيروت، ٤٩٥/٢.

(٣) فن الطباق في أدب التوقيعات ، د. منيرة فاعور ، ص ١٢٩

وجاء توقيع المأمون في قضية متظلم من أبي عباد: **يا ثابت، ليس بين الحق والباطل قرابة** "(١)

لقد أظهر الطباق دور الحاكم الناصح العادل، وبيان القضايا التي تهم الراعي والرعية.

وهكذا تتكرر الدعوة في إحقاق الحق ونبذ الظلم في توقيع عمر بن عبد العزيز في رقعة رجل تظلم من ابنه: "**إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتك**"(٢)

ومن القضايا الجوهرية التي استطاع الحاكم أن يوظف فيها الطباق، في التوقيعات ليكون مسعفًا روحيًا يعزز ما لدي الفرد من طاقات كامنة وقناعات ثابتة ما جاء في توقيع أبي العباس السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: "**من صبر في الشّدة شارك في النعمة**"(٣)

ففي هذا التوقيع ينصح الحاكم رعيته بالصبر على المعاناة والتحلي بالعزيمة والجلد.

(١)انظر: التوقيع في العقد الفريد، ٢٩٨/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٩١/٤، وجمهرة رسائل العرب، ٤٩٦/٢.

(٣)العقد الفريد، ٢٩٠/٤، وجمهرة رسائل العرب، ٣٦٧/٤.

ومن القضايا التي تمَّ توظيف الطباق لإبرازها في التوقيعات قضية (الصدق والكذب) والتي ظهرت في توقيع طاهر بن الحسين في رقعة متنصح: "**سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين**"(١).

والتعبير هنا جاء بالأسلوب الخبري، لبيان حسن إدارة الحاكم للأمور حيث قال: (سننظر)، أمّا المعني الضمني في هذا التوقيع هو تحقيق مبدأ الثواب في حالة الصدق، والعقاب في حالة الكذب. وما كان ليظهر هذا المعني دون الطباق.

لقد جاء الطباق بنوعيه (الإيجاب والسلب) في التوقيعات، فمن أمثلة طباق السلب ما وقّع به مروان بن محمد في كتاب نصر بن سيار: "**الحاضر يري مالا يري الغائب فاحسم الثؤلول**(٢)" والثؤلول: الحبة تظهر في الجلد والمراد اقتل العدو واقض على الفتنة. فجاء الطباق الإيجابي بين الحاضر والغائب، وطباق السلب بين يري ولا يري. كل هذا ليثبت مهارات الموقعين الأدبية والبلاغية.

وأحيانًا يتعاضد مع الطباق ألوان بلاغية أخري وهو ما عرف عند علماء البلاغة بترشيح الطباق "وهو أن يوجد بجانب التضاد بين المعنيين صورة أخري من صور البديع أو لون من ألوان البلاغة، فيتقوى الطباق بذلك، ويكتسي الكلام طلاوة وبهاءً"(٣)

---

(١)العقد الفريد، ٣٠٥/٤، وجمهرة رسائل العرب، ٣٩٠/٤.

(٢) العقد الفريد، ٢٩٣/٤، وجمهرة رسائل العرب، ٤٩٩/٢

(٣) علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار– القاهرة، ط. ثالثة١٤٣٤هـ– ٢٠١٣م، ص١٥٢.

فالتضاد يؤدي إلى إيضاح المعني وتقريب الصورة، ومن أبرز المحسنات اللفظية التي التقت مع الطباق في التوقيعات فن الجناس، حيث وقع الجناس غير التام في توقيع زياد قصة رجل شكا من عقوق ابنه " **ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد** " فوقع الطباق والجناس بين (الولد – الوالد) بسبب الاختلاف في عدد الحروف.

ومنه توقيع الحسن بن سهل في قصة متظلم " ينظر فيما رقع، فإن الحق منيع وإلا فشأن السليم دواء السقيم " فوقع الجناس بين (السليم – والسقيم) وهو جناس غير تام؛ لاختلاف نوع الحروف، كما وقع بينهما الطباق.

ومن اجتماع الطباق والسجع في التوقيعات توقيع هارون الرشيد إلي صاحب المدينة: "**ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن، فإنهم قد أطالوا ليلي، بالسهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد**[١]

فبين السهاد والرقاد طباق وبين الجملتين وقع السجع المتوازي حيث اتفقت الفاصلتان في الوزن والتقفية. ومن التوقيعات المسجوعة أيضًا توقيع يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان: " **إلي صاحب خراسان في المسودة: نجم أمر أنت عنه نائم، وما أراك منه أو مني بسالم** "[٢]

(١)انظر نصوص التوقيعات في العقد الفريد،٤/٣٠٠، ٣٠٤/٤، ٢٩٧/٤

(٢) العقد الفريد، ٢٩٢/٤

ومنه توقيع هشام بن عبد الملك في رسالة أحد المتظلمين: " **أتاك الغوث إن كنت صادقًا، وحلّ بك النكال إن كنت كاذبًا، فتقدم أو تأخر**[١]"

ووقع معاوية:" **نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع** "

والسجع من الخصائص البلاغية العامة التي تميزت بها التوقيعات، نجد ذلك في توقيعات عبد الملك بن مروان وغيره من الحكام والكتَّاب فوقع عبد الملك لشخص تظاهر له بالنصيحة حيث قال: " **إن كنت صادقًا أثبناك، وإن كنت كاذبًا عاقبناك، وإن شئت أقلقناك.**"[٢]

فالحرص على توازن الجمل، وتحقيق الإمتاع بجذب الانتباه كان من خصائص التوقيعات في عصورها المختلفة لاسيما في العصر الذهبي لها–العصر العباسي – فمن توقيعات العصر الأموي التي ظهر فيها السجع توقيع معاوية في رسالة مسلم بن زياد والي خراسان: " **قليل العتاب يحكم مرائر الأسباب، وكثيره يقطع أواخي الانتساب**"[٣].

ومنه توقيع يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان إلي صاحب خراسان " **نجم أمر أنت عنه نائم، وما أراك منه أو مني بسالم**".[٤] فالقرينتان (نائم – سالم) اتفقتا في الوزن والتقفية.

---

(١) من النقد التطبيقي (قراءات تحليلية ناقدة في أدب الجاهلية والإسلام)، د. عبد المجيد الإسداوى، مكتبة المتنبي– الدمام، ط. أولي١٤٢٨ه–٢٠٠٧م، ص٣٣٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٣٤.

(٣) من النقد التطبيقي، د. عبد المجيد الإسداوى، ص٣٣٤.

(٤) العقد الفريد، ٢٩٢/٤، وجمهرة رسائل العرب، ٤٩٨/٢.

وقد يجتمع في التوقيع الواحد عدة فنون بلاغية كالطباق، والعكس والتبديل، والسجع فمنه توقيع يوسف بن القاسم:

" **إن إساءة المحسن أن يكف عنك إحسانه، وإحسان المسيء أن يكف عنك إساءته، وا بعد ما بينهما**"(١)

وقد تأثرت التوقيعات الأندلسية الشعرية والنثرية بتوازن الجمل وبالسجع عن توقيعات يوسف بن تاشفين في عزل أحد ولاته استجابة لمطالب الرعية في الرد على تظلمات الناس من عمال السلطان: "**أمّا بعد، فإنّه قلّ شاكروك، وكثر شاكوك، وقد عزلناك عزلة تحط قدرك، وتخمد ذكرك، والسلام**"(٢)

ومنها توقيع الوزير الكاتب أبا المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ، كتب إلى المعتمد بن عباد يشكو بعضهم:

يهان بحمص عزيز الرجال ويعزي إليهم قبيح الفعال
ويغري ذوو النقص من أهلها بتلطيخ أعراض أهل الكمال

فوقَّع المعتمد على ظهر رقعته بهذين البيتين:(المتقارب)

شعُرتَ فَجئتَ بِعَين المُحال وَما زلتَ ذا خَطل في المَقالْ
مَتى عَزّ في حِمص غَيرُ العَزيز أَو ذَلَّ غَيرُ الذَميم الفَعالْ(٣)

---

(١) جمهرة رسائل العرب، ٣٩٤/٤.

(٢) العقد الفريد،٣٠٢/٤ ونسب التوقيع لجعفر بن يحيي البرمكي

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، ٢٥٣/٥.

ومن التوقيعات الأندلسية المعتمدة على التجاوب الموسيقي توقيع الحكم المستنصر على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي، حيث جاء فيه: "**فما أعلم رُزية أعظم من رزيتك لدينا**" فالجناس بين (أعلم، وأعظم) جناس غير تام لاحق لاختلاف نوع الحروف كما جاء الجناس بين (رزية ورزيتك).

وللجناس وقع في الكلام يجعله يجمع بين الفصاحة والبلاغة وقبول الكلام على نفس المتلقي، فالإيقاع المنبعث من التناظر بين الكلمات والجمل يستشعره المتلقي حتى الذي ليست لديه أية دراية بموسيقي الألفاظ.

ويؤدي الجناس دورًا في بناء نصوص التوقيعات عبر الدوال المتماثلة صوتيًا والمختلفة في مدلولاتها اللغوية.

"فالتجاوب الموسيقي الصادر عن تماثل الكلمات تماثلًا كاملًا أو ناقصًا تطرب له الآذان وتهتز له أوتار القلوب فتتجاوب في تعاطف مع أصداء أبنيتها وهذا يؤكد بجلاء أهمية الجناس في خلق الموسيقي الداخلية في النص الأدبي وبناء ما بين ألفاظه من وشائج التنغيم"(١)

ومن التوقيعات المشرقية المشتملة على الجذناس توقيع الصاحب بن عباد، وقد ذُكر له أن رجلا غريب الوجه يدخل داره ويسترق السمع

(١) علم البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ص٢٨٧.

فقال: " **دارنا خان يدخلها من وفّي ومن خان**"[1] فالجناس وقع بين (خان) الاسم، و(خان) الفعل جناس تام مستوفي.

وكما أوضح الطباق الوعي عند الحكام بقضايا الرعية والمجتمع، فجاءت المقابلة لتبرز قضايا مجتمعية ظهرت في التوقيعات مثل توقيع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: "**يا عمرو؛ عمر نعمتك بالعدل؛ فإن الجور يهدمها**"[2]

فتجتمع المقابلة في (العدل والجور) وبين (عمّر- يهدمها) كما يظهر الإيقاع اللفظي بين (عمرو-عمّر)، كما اشتمل التوقيع على قيم حجاجية ساعدت على إبرازها المحسنات المعنوية واللفظية، وقد علل الموقع للإنشاء الطلبي في مقدمة التوقيع (عمّر نعمتك بالعدل) فكان التعليل المقنع (فإن الجور يهدمها). فالعدل سبب في تعمير النعم ودوامها.

يتضمن التوقيع إذن مؤشرات حجاجية كثيرة (كعلاقة التعليل، والمحسنات) والصور البلاغية (صورة التعمير، صورة الهدم)، ليتحول الموقع له من سلوك الجور إلي العدل عن رغبة واقتناع.

ومن النماذج التي تمّ توظيف المحسنات البديعية فيها كآلية من آليات الحِجاج توقيع طاهر بن الحسين توقيعًا موجزًا عندما تظلم رجل من

---

(١) خاص الخاص، ص٩٢-٩٣، ويتيمة الدهر، للثعالبي، ت: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية -بيروت، ط. أولي ١٤٠٣ه-١٩٨٣م، ٢٣٤/٣.

(٢) العقد الفريد، ٢٩٨/٤، وجمهرة رسائل العرب، ٣٧٨/٤.

أصحاب نصر ابن شبت فقال له طاهر بن الحسين: "**طلبت الحق في دار الباطل**"

فمن المستحيل أن يجتمع الحق والباطل في دار واحدة، لأن المتناقضين لا يجتمعان، فالحق والباطل بينهما صراع أبدي، والمعني لا يعقل أن تطلب حقًا في مكان يصول فيه الباطل لما يترتب على ذلك من هزائم وخيبات أمل.

فالمطالبة بالحق مبدأ سليم يتطلب مراعاة المقام والظروف وما يتعلق بالأزمنة والأمكنة والأشخاص، لهذا ارتأى الموقع أن يُنَبه إليها وكأن التوقيع يحمل معنًا إنشائيًّا هو كيف تطلب الحق في دار الباطل؟ استفهام قد يفيد التعجب والإنكار. فهل اقتنع المتظلم بأنه أخطأ في تقدير الأمور. وهل قام التضاد بدوره في تحقيق الإقناع؟

وهكذا أدى الطباق دوره في تحقيق الإقناع في التوقيعات الأندلسية والتي منها توقيع الحكم المستنصر على كتاب الوزير جعفر بن عثمان المصحفي "**فإن كان ما لا بد من كونه قريبًا أو بعيدًا**" فالتضاد بين (قريبًا وبعيدًا) من شأنه التأثير في ذهن السامع.

ومنه ما ورد في توقيع عبد الرحمن الناصر المعروف بالشيخ الممتنع، حيث جاء فيه " **ولما رَأَيْنَاك قد تذرعت بِإِظْهَار اتقاء الله رَأينَا أَن نعرض عَلَيْك أَولا مَالا بُد لَك مِنْهُ أخرًا**[1] فالطباق ظاهر بين أولاً وآخرًا.

(١) المغرب في حلي المغرب، لابن سعيد المغربي، ١٨٤/١.

ومن التوقيعات الأندلسية المعتمدة على المقابلة ما ورد في توقيع عبد الرحمن الناصر علي كتاب معد بن إسماعيل بينهما منافرة، فوقع الناصر علي كتابه: "**يا هذا عرفتنا فسببتنا، وجهلناك فأمسكنا عنك.**"(١)

مما سبق عرضه من توقيعات مشرقية وأندلسية اتضح وبقوة أثر بلاغة التوقيعات في إحداث المتعة الفنية والإبهار الجمالي، فقد تحقق بها التنافر من خلال (الطباق، والمقابلة) كما تحققت بها التوافق عبر توظيف الموقعين لبلاغة السجع والجناس والموازنة بين الجمل، في سياق لا يشوبه التكلف ولا يعتريه التصنع.

خضعت الفنون البلاغية المستخدمة بكثرة في التوقيعات كالطباق والسجع والجناس لفطرة الموقعين وسليقتهم، وتمكنهم من الأدوات البلاغية.

ولم يستخدم الموقعون الطباق والجناس والسجع كحلية بلاغية وزينة؛ بل جاءت لتأكيد بعض المضامين الفكرية ونفي غيرها. كما جاءت تلك الفنون كآليات للإقناع.

أيضًا يتضح مما سبق أن اجتماع أكثر من محسن بديعي في بنية التوقيع، حقق التعاضد بين اللفظ والمعني لأداء الغرض المقصود من التوقيع ولإحداث الجمال والإمتاع.

---

(١) المرجع نفسه،١/١٩٠.

كانت التوقيعات المشرقية نموذجًا يحتذي به لدي الموقعين الأندلسيين، فلم تكن هناك اختلافات كبيرة في توظيف المقاييس البلاغية كآليات حِجاج في التوقيعات المشرقية ونظيراتها الأندلسية.

اختلفت المضامين الفكرية والموضوعات التي عالجتها التوقيعات المشرقية عن التوقيعات الأندلسية، لأنها فن اضطلع بحل مشاكل الناس وتظلماتهم ضد الساسة، غير أن التوقيعات الأندلسية تعمقت في القضايا الاجتماعية أكثر من القضايا السياسية. حيث كانت أسلوب حياة يعيشه العامة والخاصة.

تزخر التوقيعات بين ثناياها بقيم ومبادئ آمن بها الموقعون، وحاولوا إقناع الموقع لهم بها كقيم العدل والإنصاف والحق، فكانت التوقيعات وسيلة يمكن توظيفها في الاحتجاج على الخصوم والمقصرين، وهذه الوظيفة الحجاجية غرضها التأثير في الوقع لهم.

المحور الثالث
الاقتباس والتضمين وآليات الحِجاج في فن التوقيعات

لما كانت التوقيعات غايتها الفصل في تظلمات الأفراد والجماعات، كانت لابد أن تعزز بالحجج والبلاغات؛ إنها الجواب الشافي لمن شكا واستجار، والرد الكافي على من جار وتجبر، لذا لم يكتف الموقعون بأن تحمل توقيعاتهم المعاني الإسلامية فحسب؛ بل اقتبسوا من القرآن الكريم والحديث النبوي، وضمنوا توقيعاتهم الشعر والنثر والأمثال السائرة، والحكم السديدة.

ومن هنا لم تقف وظيفة التوقيعات عند الإخبار أو مجرد التواصل والإمتاع، وإنما خاضت معركة الحِجاج؛ لإقناع المخاطبين.

والحِجاج هو "أن تأتي بمعني ثم تؤكده بمعني آخر يجري مجري الاستشهاد علي الأول والحجة على صحته."(١)

وقد اتفق القدامى والمحدثون على أن التوقيع الذي نعتبره ذا قيمة أدبية إلى جانب ما له من قيمة سياسية وتاريخية، له شروط أهمها: الإيجاز والبلاغة، والإقناع، وقصدوا بالإقناع أن يشتمل التوقيع علي الحجة الواضحة والقدرة على الإقناع وصحة القول.(٢)

---

(١) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص١١٦(فصل الاستشهاد والحجاج)

(٢) انظر: فن التوقيع ومنزلة الصاحب بن عباد فيه، ص٣٨٥، حيث تحدث البحث عن الخصائص الفنية لفن التوقيعات وميزاتها حتى العصر العباسي.

يشكل تعالق المبدع- أخذًا أو تحويلاً- مع نصوص أخري نثرية كانت أو شعرية، سابقة عليه، أو متزامنة معه، أحد العناصر التي تسهم في بناء النص، وإنتاج دلالته ويندرج تحت هذه الوسيلة التعبيرية الثرية، أساليب فنية منها: الاقتباس والتضمين والتلميح.(١) والاقتباس يعرفه البلاغيون بقولهم: هو أن يضمن الأديب كلامه شيئًا من القرآن، أو الحديث الشريف، دون أن يصرح بذلك، فلا يقول: قال الله تعالي، أو قال الرسول، فإن صرح فلا يكون اقتباسًا؛ وإنما يكون استشهادًا أو استدلالا.(٢)

ويأتي الاقتباس في الشعر وفي النثر، ويجوز أن يؤخذ الاقتباس بلفظه ومعناه، ويجوز أن ينقل فيه اللفظ المقتبس عن معناه الأصلي إلى معني آخر، كما يجوز إجراء تغيير يسير في العبارة المقتبسة، لأجل الوزن أو غيره.(٣)

ولأن آيات القرآن الكريم في أعلي درجات البلاغة؛ لذا حرص الموقع على الاقتباس من آيات القرآن؛ لأنه أفضل طريق في إقناع المتلقي، وقد ظهرت الدقة والبراعة في اختيار الموقعين للآية التي تتناسب مع الحدث والمقام.

---

(١)انظر: البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، ص٣٥٦.

(٢) انظر: في مفهوم الاقتباس: البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، ص٣٥٦، وانظر علم البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، ص٢٦٠.

(٣)البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، ص٣٥٦.

فمثلا توقيع عثمان في قصة أناس شكوا من مـــروان بـــن الحكـــم، وذكروا أنه أمر بضرب أعناقهم، فوقع عثمان في قصتهم: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٦]

في توقيع الخليفة عثمان بالآية القرآنية تذكير لمروان بن عبد الحكم بضرورة التقيد بأحكام الشرع، وبقيم العدل والإنصاف؛ فإقامـــة الحـــدود (ضرب أعناقهم) تخضع للأحكام الشرعية لا للنزوات الفردية، فالغرض من توقيع الخليفة عثمان بالآية الكريمة هو محاولة إقناع مروان بن الحكم بتغيير موقفه، فهذا الدليل النقلي هو الحجة الأقوى، والأكثر ملائمة لسياق التوقيع، وبالتالي فهو الأكثر قدرة علي التأثير والإقناع، فضلا عما يفيده مضمون الآية من ضرورة التأسي برسول الله- صلي الله عليه وســـلم- والاقتداء بسياسته في التعامل مع المخالفين والعصاة.(١)

فالآيات القرآنية من أقوي الأدلة وأعلاها مرتبة وحجة فمـــن تلـــك التوقيعات توقيع لعمر بن عبد العزيز لعامله على الكوفة وكان قد كتـــب يخبره أنه فعل في أمر كما فعل عمر ابن الخطاب فوقع له بقوله تعالي: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠]

يفهم من التوقيع موافقة عمر بن عبد العزيز على ما فعله عامله؛ لأن مضمون الآية الكريمة أمر لرسول الله- صلي الله عليه وسلم- ولأمتـــه

(١) انظر هذا التوقيع في بحث منشور بعنوان: التوقيعات من المنظور البلاغي، للباحـــث. حسن بنيخلف، على موقع https://nayssir.12/07/ 2020/ World press. Com .

من بعده بالاقتداء بأهل الهدي- وفي الآية الأنبياء والرسل- وبهذا يعزز الموقع موقف عامله، ويدعو بشكل ضمني إلى ضرورة الاقتداء بالرسل باعتبارهم نماذج بشرية مشهود لها بالصلاح.

ومنه ما كتبه الخليفة العباسي "المهدي" ردًا على عامل أرمينية يشكو إليه سوء طاعة الرعية، فوقع المهدي في كتابه مقتبسًا من القرآن قوله تعالي: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]

ووقع جعفر بن يحيى البرمكي في قصة رجل محبوس بقوله تعالي: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد:٣٨] مُرْجعًا في هذا التوقيع الأمر كله إلي الله.(١)

ومن التوقيعات المقتبسة من آيات القرآن الكريم الفضل بن سهل في قصة قطاع طرق بقوله تعالي: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ [المائدة:٣٣]

ومن هذا التوقيع وغيره يتبين الدقة في اختيار الموقع للآية المتناسبة مع المقام. فسواء أكان الغرض من الاقتباسات السابقة هو التزيين، أم الإقناع، أم البيان والتوضيح، فإن الحسم في وظيفة التوقيعات رهين بما يحيط بها من سياقات ومقامات، وبأحوال المخاطبين، ومقاصد المتكلمين.

(١) فن التوقيعات في النثر العربي، للباحث: طارق حسين علي، بحث منشور في مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد (١٨)، العدد (١)، لسنة ٢٠٢٢م، ص٤٣٩.

كما يتبين أن بقاء التوقيعات في نفوس الناس وتوارثها بين الأجيال، كان بسبب اشتمالها على قيم العدل والإنصاف والأخلاق، فكثير من التوقيعات جاءت لتصحيح السلوكيات والمواقف وتقويم الأفكار.

ومن التوقيعات المقتبسة من القرآن الكريم توقيع الصاحب بن عباد في رقعة أبي محمد الخازن، وكان ذهب مغاضبًا فكتب إليه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:١٩] ووقع في رقعة استحسنها فصاحة وبلاغة {﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥]}[1]

ومنه توقيع الوزير المهلبي وزير معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمي كان قبل اتصاله بمعز الدولة وتقلده منصب الوزارة يعاني من قلة ذات اليد وشدة الفقر. وسافر مع رفيق له، ونزل معه في بعض الأماكن واشتهي اللحم، فلم يجد ثمنه فأنشد ارتجالًا:(البسيط)

ألا موت يباع فاشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرت قبرا من بعيد وددت لو أنني مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

(١) انظر: الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم، د. بدوي بطانة، مطبعة مصر– القاهرة ١٣٨٣ه–١٩٦٣م، ص٢٠٩–٢١٠.والآيات من (سورة الشعراء:١٨–١٩)، (الطور :١٥)

فتأثر رفيقه، فاشتري له بدرهم لحمًا، وأعده وقدمه له، وتفرقا، ثم تتابعت الأيام وتغيرت الأحوال، وحسنت حال المهلبي وتولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة البويهي، وضاقت الحال برفيقه في السفر الذي اشتري له اللحم، فشد الرحال إلى المهلبي، فلما بلغه كتب إليه رقعة تتضمن أبياتًا منها:

ألا قل للوزير فدته نفسي مقال مذكر ما قد نسيه

أتذكر إذ تقول لضنك عيش ألا موت يباع فأشتريه

فلما قرأ المهلبي الأبيات فأمر له بسبع مئة درهم، ووقع له في رقعته قوله تعالي: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١] ثم دعاه وأكرمه، وقلده عملاً مناسبًا يرتزق منه. والآية تم اختيارها بدقة لتتناسب مع سياق القصة.

فصديقه أعطاه درهمًا في وقت الضيق، فرده سبع مئة درهم في وقت الرخاء تحقيقًا لما في الآية الكريمة.(١)

(١) أورد القصة موجزة القلقشندي في صبح الأعشى، ٧٠/١، وانظر القصة في: إحكام صنعة الكلام، لأبي القاسم الكلاعي (محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي)، ت: محمد رضوان الداية، دار الثقافة –بيروت،١٩٦٦م، ص١٦٢– ١٦٣.

ومن التوقيعات المقتبسة من الحديث الشريف ما وقع به زياد بن أبيه في رسالة محبوس: "**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**"(١)

مما سبق يتضح أن النصوص المقتبسة لم تكن لمجرد الزينة والزخرفة للتوقيعات؛ بل آليات حجاجية اعتمدها الموقعون وعيًا منهم بأهميتها وبقيمتها في الإقناع والتأثير؛ ولهذا اختاروا من الاقتباس الدليل الأكثر ملائمة للسياق والمقام إيمانًا منهم بما لهذا الاختيار من أهمية، وحرصًا على ألا يفرغ النص المقتبس من محتواه، من هنا كانت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأشعار والأمثال والحكم حججًا لتدعيم قناعاتهم ومواقفهم، وإفحامًا لخصومهم.(٢)

وقد ارتبط الأندلسيون روحيًّا بالموروث الشرقي رغم بعد المسافة بينهم، فمن النماذج التي اقتبس فيها الموقعون من القرآن الكريم توقيع عبد الرحمن الناصر علي كتاب مطرف بن منذر التجيبي، عندما ثار مطرف في قلعة أيوب مستعينا بالمشركين، فكان من توقيع عبد الرحمن الناصر علي كتاب مطرف: "**أولي له ثم أولي، لقد ضل سعيه وخسر**

(١)من النقد التطبيقي (قراءات تحليلية ناقدة في أدب الجاهلية والإسلام)، د. عبد المجيد الإسداوي، ص٣٣٤.

(٢) ولمعرفة المزيد حول آليات الحجاج في فن التوقيعات، انظر: التوقيعات من المنظور البلاغي، للباحث/ بنيخلف، على موقع https://nayssir. WordPress. Com/ 2020/ 12107.

خسراناً مبينا"[1] فالتأثر هنا بمفردات القرآن الكريم يدل على حضور القرآن في العقل الأندلسي في نصوص التوقيعات.

ومن التوقيعات الأندلسية التي استقي فيها الموقع من آيات القرآن الكريم، مع الدقة في اختيار الآية ما جاء في نفح الطيب للمقري. [2] فقد كتب ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلي الخليفة المنصور يعقوب بن يوسف يتهدده ويتوعده، فدفع المنصور الكتاب إلى ولده وولي عهده وأمره أن يرد عليه، فقرأه ثم مزقه وكتب على ظهره قال الله تعالي: **{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}** (النمل:٣٧) **الجواب ما تري لا ما تسمع.**

فلا كُتُبَ إِلّا المَشرَفِيَّةُ والقنا ولا رُسُلٌ إِلّا الخَميسُ العَرَمرَمُ[3]

---

(١) انظر المقتبس، لأبي حيان، ٣٩٦/٥، ومن الأبحاث التي تحدثت عن مصادر التوقيعات في الأدب الأندلسي بحث بعنوان: التقديم والتأخير في فن التوقيعات الأدبية دراسة بلاغية تحليلية (كتاب العقد الفريد أنموذجًا) أ. أبو عجيلة السايح عامر، د. أشرف حسن محمد حسن، كلية اللغات- جامعة المدينة العالمية- ماليزيا، مجلة كلية الآداب، ع٢٩، ج٢، لسنة ٢٠٢٠م، ص٤٢٩.

(٢) انظر: نفح الطيب، للمقري، ت: د. إحسان عباس، ١٩٩٧م، ١٠٢/٣، وانظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ٧/٧، وانظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن سعيد الأندلسي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط. أولي١٤٢٤ه، ٣٠٤/٤.

(٣) شرح ديوان المتنبي، للواحدي النيسابوري، ص٢٢١، وبيت المتنبي: (الطويل)

ولا كُتُبَ إِلّا المَشرَفِيَّةُ عِندَهُ ولا رُسُلٌ إِلّا الخَميسُ العَرَمرَمُ

والمُوَقّع استخدم كلمة القنا مكان عنده

ورمي بالكتاب إلى أبيه فسر والده بالتوقيع العجيب. والبيت لأبي الطيب المتنبي.

ومن التوقيعات الأندلسية التي اقتبس فيها الموقع من آيات القرآن الكريم، توقيع الخليفة المنصور يعقوب الموحدي الذي بعث إلى بعض عماله، لينظر له رجلاً لتأديب ولده، فبعث العامل له برجلين وقال: قد بعثت إليك برجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه، فلما امتحنهما الخليفة لم يرضياه، فوقع على ظهر كتاب العامل: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** (الروم:٤١)[١]

ثانيا: بلاغة التضمين في فن التوقيعات:

عرف البلاغيون التضمين بقولهم: " أن يضمن الشاعر شعره شيئًا من شعر غيره، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء"[٢].

ويجوز عكس البيت المُضَمَّن بأن يجعل عجزه صدرًا، أو صدره عجزًا[٣]

(١) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ١٠٥/٢٨، ونفح الطيب، للمقري، ١٠٤/٣.

(٢) البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، ص٣٥٨.

(٣) وقد سماه ابن حجة الحموي (بالإيداع)، انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، ت: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال -بيروت، ط٢٠٠٤م،٣١١/٢.

وهناك مصطلح التلميح وهو" أن يشير الأديب إلي قصة أو مثل أو شعر، دون أن يورد ألفاظه"(١). والأمثال فن عربي خالص تظهر قيمته في الاختصار المؤدي إلى الإقناع العقلي.

ويري أحد الباحثين أن بدايات التوقيعات الشعرية في المشرق كانت علي يد عبد الملك بن مروان، إذ له ثلاثة توقيعات شعرية منها توقيعه في كتاب بقوله:(٢)

كَيفَ يَرجونَ سِقاطي بَعدَما شمل الرأس مشيب وصلع

يسخر من هؤلاء الذين يتوقعون منه الخطأ بعد أن وصله رسول الموت: المشيب وتساقط الشعر، وقد استلهم هذا البيت من قول الشاعر الجاهلي سويد بن أبي كاهل

اليشكري من عينيته التي مطلعها:(٣)(الرمل)

بَسَطَت رابِعَةُ الحَبلَ لَنا فَوَصَلنا الحَبلَ مِنها ما اِتَّسَع

ومن البلاغية فقد اعتمد البيت على الاستفهام التعجبي، واعتمد عبد الملك بن مروان في توقيعه على سمة مهمة من سمات الإقناع، وهي استناده إلى معيار خلقي يتمثل في عدم إيذاء الطاعن في السن، ووجوب

(١) البلاغة العربية (البيان والبديع)، عزة محمد جدوع، ص٣٥٩.

(٢) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، ٢٩٥/٥

(٣) انظر: ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، ت: شاكر العاشور، دار الطباعة الحديثة بالعراق، ط. أولي ١٩٧٢م، ص٢٣.

احترامه وتقديره وتوقيره، وكأنه أراد تعرية الموقع له من أي غطاء خلقي لعمله(١).

ومن توقيعات عبد الملك بن مروان الشعرية قوله:(الطويل)

أَقِلّوا عَلَيهِم لا أَبا لِأَبيكُمُ مِنَ اللَومِ أَو سُدّوا المَكانَ الَّذي سَدّوا

فهذا البيت ينسب للحطيئة(٢)

ومنه توقيعه في كتاب لابن الأشعث(٣):

فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا وينوي من سفاهته كسري؟

وظف عبد الملك البيت في استمالة الرأي العام ضد ابن الاشعث، فهو يحفظه في غيبته، ويجبر ما انكسر بينهما، وابن الأشعث لحماقته ورعونته يقابل هذا الإحسان بالإساءة وكأنه يقصد بذلك تعريته من أي غطاء ديني أو خلقي(٤).

وقد حمل البيت استفهامًا تعجبيًا غرضه إيضاح الرأي العام وضمان عدم لوم الخليفة عبد الملك علي أي فعل يتخذه ضد ابن الأشعث، مع ما في البيت من طباق بين (أجبر – كسري) وبين (حفاظًا الواقعة مفعولا

(١) انظر: التوقيعات الشعرية في العصر العباسي، د. محمود شاهين، ص٧٦٥

(٢) انظر ديوان الحطيئة، شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، ت: نعمان أمين طه، ط. أولي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي بمصر ١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م، ص١١٠.

(٣) العقد الفريد، ٢٨٩/٤

(٤) التوقيعات الشعرية في العصر العباسي، د. محمود صبحي، ص٧٦٨

لأجله وبين سفاهته) وجاءت الجملة الاعتراضية " من سفاهته " لمزيد من لفت الانتباه(١).

ومنه ما كتبه قتيبة بن مسلم الباهلي إلي سليمان بن عبد الملك يتهدده ويتوعده بالقتل فوقع سليمان ببيت شعر: (الكامل)

زَعَمَ الفَرَزدَقُ أَن سَيَقتُلُ مَربَعاً أَبشِر بِطولِ سَلامَةٍ يا مَربَعُ(٢)

هذا البيت أشهر بيت في التهكم، إذ استطاع الموقع أن يعقد مقارنة بينه وبين قتيبة كان فيها سليمان (جرير) وابن قتيبة (الفرزدق) الذي هدده بالخلع مثلما هدد الفرزدق جرير بالقتل.

وفي مواجهة التهديد بالبشري لون من ألوان السخرية تندرج تحت الحرب النفسية مع الخصم لزعزعة ثقته في نفسه، والسخرية لون من ألوان الحجاج الهادف إلى الضغط علي المتلقي، والغرض من المقابلة الساخرة في البيت هي تحقير الخصم، وبيان عجزه عن تنفيذ قراره، لقد انتقي سليمان من الشعر ما كان أكثرها تهكمًا. فحين يضمن الموقع شعر غيره لابد أن تكون هناك مناسبة بين التوقيع والشعر المستلهم والمقام.

ومن التوقيعات المتضمنة مثلا " توقيع الصاحب بن عباد في رجل عصي له أمرًا "**العصا لمن عصي**".

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧٦٨.

(٢) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، ت: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف – القاهرة، ط. ثالثة، ٩١٦/٢

ومن أبرز التوقيعات المستندة إلى الحكمة توقيع هارون الرشيد لصاحب خراسان: " **دوا جرحك لا يتسع** " حيث اعتمد التوقيع على وجود مرض عند صاحب خراسان يحتم عليه تقويم سلوكه السياسي حتى لا تتسع دائرة المعارضة والتذمر عند الرعية، والأسلوب الإنشائي هنا لأجل النصح والتحذير من تفاقم الأمور.

ومنه توقيع معاوية في كتاب عبد الله بن عامر عندما سأله أن يقطعه مالاً فوقع " **عش رجبًا تر عجبًا** " لقد استند التوقيع إلى كل مقومات البلاغة والإقناع، حيث الجناس والترصيع، والتي لا تسهم في تزيين التوقيع وزخرفته فقط، وإنما تعمل على إبراز بعده الحجاجي وتعزيزه، أي إنك إذا أدركت رجبًا ستصبح شاهدًا على ما يحمله تجدد الأزمان من عجائب.

ومنها أن تري ابن عامر يسأل معاوية أن يقطعه أرضًا بالطائف. أو أن تري مسئولًا شغلته المطامع عن مراعاة المصالح، هذا المثل هو تنبيه لابن عامر عن غرابة طلبه، وإقناعه بضرورة العدول عنه.

فالمفهوم الضمني للتوقيع هو أن طلب ابن عامر مرفوض وكان عليه العدول عنه واستخدم معاوية المثل لأنه حجة يريد أن يقنع بها ابن عامر.

أمَّا عن التضمين في التوقيعات الأندلسية فلم يختلف كثيرًا عن التوقيعات المشرقية، فقد ضمن الموقعون الأندلسيون توقيعاتهم شعرًا مشرقيًا، وقد تجلي في هذا التوقيع الذي أرسله صاحب دانية إلي

المنصور ابن أبي عامر الأصغر صاحب بلنسية، حيث ضَمَّنه بيت الحطيئة: (البسيط)

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

فأخرجت المنصور وأقامته وأقعدته، فأحضر وزيره أبا عامر التاكرني فكتب عنه:

شتّمت مواليها عبيد نزار شيم العبيد شتيمة الأحرار

فسلا المنصور عما كان فيه(١).

ومنه أن أبا القاسم أحمد بن أبي بكر الزبيدي كتب إلي أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الوزير بالدولة العامرية كتابًا يرغب فيه إليه أن يحسن العناية به في بعض الأمور، وكتب في آخر الكتاب: (الطويل)(٢)

وَمِن نَكَدِ الدُنيا عَلى الحُرِّ أَن يَرى عَدُوّاً لَهُ ما مِن صَداقَتِهِ بُدُّ

قال أبو عمر: فحولت الكتاب ووقعت على ظهره ولم أزد:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يري صديقًا ما من عداوته بد

مما سبق يتبين تأثر الأندلسيين بالمشارقة في تضمين توقيعاتهم لأبيات الشعر، مع المحافظة على النص المتضمن، أو قلب كلمات البيت لتتناسب مع المقام.

(١) انظر: التوقيع في نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ١٣٢/٤.

(٢) انظر: التوقيع في جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، للحميدي، ص١٠٦، والبيت في الأصل للمتنبي، انظر: شرح ديوان المتنبي، للواحدي النيسابوري، ص١٥٠.

ولم تكن التوقيعات في الأندلس للرجال فقط؛ بل ظهرت توقيعات نسائية منها توقيع هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي، وكانت أديبة شاعرة، فقد كتب إليها أبو عامر بن ينق يدعوها للحضور عنده للعزف علي العود: (من الكامل التام)

يا هند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل؟
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نغمات عودك في الثقيل الأول

فكتبت إليه على ظهر رقعته (من الكامل تامًا)

يا سيدًا حازَ العُلا عن سَادة شَمّ الأنوفِ مِن الطِراز الأوَّلِ
حَسْبي مِن الإسراعِ نَحوكَ أنني كتبت الجوابَ مع الرسولِ المُقْبِلِ

فقد دعا الوزير الجارية هند لزيارته، للاستماع إلى عزفها على العود، فوقعت بأبيات فيها مدح للوزير، ووافقت علي تلبية الدعوة، وقد اعتمدت علي بلاغة التضمين، في البيت الأول حيث ضمنت البيت في الشطر الثاني من كلام حسان بن ثابت قوله: (الكامل)

بيضُ الوُجوهِ كَرِيمَةٌ أَحسابُهُم شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِرازِ الأَوَّلِ[1]

من التوقيع السابق يتبين تأثر الجارية بالشعر العربي واطلاعها على درره ولا يخفي اعتمادها في التوقيع على اختيار أبيات شعر على نفس

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، لعبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر١٣٤٧هـ- ١٩٢٩م، ص٣١٠.

البحر والروي في الرد على الرسالة، وهو ما يجذب القارئ ويؤكد على أن التوقيعات لم تقتصر على الرجال؛ بل كان للنساء نصيب منها.

ولم يرد التشبيه في توقيع هند لذاته؛ بل كان غرضه الإقناع والتأثير النفسي" فقد شبهت الإسراع في مجيئها إلي أبي عامر بسرعة الجواب إذا كان شفويًّا أمام السائل؛ لتؤكد شوقها إليه، والذي يتساوق مع شوقه إليها، وبذلك قدمت دليلا عقليّا علي دعواها، وأقامت الحجة علي زعمها في سرعة تلبية الدعوة "(١)

ولم يقتصر الموقعون في الأندلس على التضمين من أبيات الشعر؛ بل وردت توقيعات معتمدة على الأمثال، منها توقيع عبد الرحمن الناصر علي كتاب الشيخ الممتنع، فقد قال في جزء من هذا التوقيع: "... **ولَيْسَ من أطَاع بالمقال كمن أطَاع بعد الفعال**"(٢)

وغيرها كثير من التوقيعات التي اشتملت على نصوص مقتبسة أو متضمنة جاءت كآليات للحجاج والتأثير في المتلقي وإقناعه بما يراه الموقع.

والاقتباس والتضمين والتلميح مصطلحات تقوم على تداخل النصوص وتفاعلها، كما تكشف عن فائدة النص الحاضر في بنائه التعبيري وتأثره بالنص السابق أو المتزامن، سواء أكان هذا التداخل قائمًا على الأخذ والاستمداد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو من غيرهما، وفي

(٢) طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، د. عامر محمود ربيع، ص٢٥٧.

(٢) انظر المغرب في حلي المغرب، لأبي سعيد المغربي، ١/١٨٤.

الاقتباس أو التضمين محاولة من مبدع نص التوقيع أن يرتبط بـــالتراث حيث يري في التراث نماذج مثلي تستحق المحاكاة.

بالنظر إلي النماذج المختلفة للتوقيعات المشرقية والأندلسية الشعرية منها والنثرية نجدها أسلوب حياة يعيشه الخليفة والوالي، والقادة والخاصة من الكبار والوزراء مع بعضهم البعض ومع العامة؛ فحملت في طياتهـــا أوامر صادرة من الحكام لولاتهم يتطلب العمل عليها وتنفيذها، كما حملت كثيرًا من الأحكام المنصفة للرعية في تظلمـــاتهم مـــن الـــولاة والقـــادة والوزراء، والتي كانوا يبعثون بها لولي الأمر لينصفهم، كمـــا ورد فـــي التوقيعات فنون نثرية أخري كالوعظ، والنصيحة، والأمثـــال، والحكـــم، والأمر بإقامة الحدود، فالتوقيعات من الفنون المركبة.

وقد استمدت التوقيعات من التراث بقدر ما استجابت لظروف العصر فقد ارتبط التجديد فيها بالقيم الاجتماعية.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة في التوقيعات النثرية والشعرية بين المشارقة والأندلس وقفت الدراسة على عدة نتائج منها:

١-تعمدت المصادر الأندلسية ككتاب العقد الفريد، لابن عبد ربه نقل التوقيعات المشرقية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، لتصبح نموذجًا يحتذي عند الأندلسيين.

٢-حافظت التوقيعات المشرقية والأندلسية على كثير من عناصرها الشكلية والموضوعية وخصائصها البلاغية؛ في إيجازها وإحكام معانيها، وقصر جملها وتوازنها، واستقائها من القرآن والحديث، والأمثال، والشعر، والحكم.

٣-غلبة بعض الخصائص البلاغية؛ على التوقيعات المشرقية والأندلسية أيضًا كالإيجاز؛ والسجع، وكثرة الطباق والمقابلة، والأساليب الإنشائية لاسيما الأمر والنهي والاستفهام التعجبي.

٤-اختلفت بنية التوقيعات المشرقية عن الأندلسية من حيث طول التوقيع وإيجازه، حيث ظهر من التوقيعات الأندلسية الشعرية توقيعات كانت قصيدة كاملة، وظهر من التوقيعات النثرية ما كان عبارة عن رسالة طويلة. وفي البحث نماذج لذلك، وربما رجع السبب إلى حاجة الموقع للإطناب في شرح تفاصيل الموضوع، لإقناع الموقع إليه.

٥-بعض الموقعين الأندلسيين كانوا شعراء فوقعوا بأبيات جادت بها قرائحهم، فاختلفت بنية التوقيع، وذلك رغبة منهم في إظهار براعتهم

الفنية في الرد على رسائل جاءت على نفس البحر والروي، فضلا عن الحاجة إلى التفصيل في القضية الموقع فيها.

٦-التوقيعات فن عكس صورة المجتمع المشرقي والأندلسي، والعلاقة التي كانت تربط بين الحاكم والرعية، فعبر عن الحياة السياسية والاجتماعية، فضلًا عن إثرائه للحياة الأدبية.

٧-استعانت التوقيعات بالصور البلاغية والأساليب الإنشائية والمحسنات المعنوية واللفظية، فضلا عن الاقتباس والتضمين من التراث؛ لأنها اضطلعت بوظيفة حجاجية غرضها التأثير في المتلقي.

٨-تنوعت المضامين الفكرية التي عالجتها التوقيعات المشرقية عن المضامين الفكرية التي تناولتها التوقيعات الأندلسية، غير إنها اشتركت معها في الدعوة لبعض القيم العليا كقيم العدل والإنصاف والحق؛ لذا تكرر مصطلح العدالة والظلم في نصوص التوقيعات، وكذلك لفظ متظلم ومتظلمين وتظلم.

٩-لم تقتصر التوقيعات على الحكام والأمراء؛ بل ضرب فيها الكتَّاب والأدباء بسهم وافر، وظهر في الأندلس توقيعات نسائية.

ورغم أن البحث في فن التوقيعات ذو استفاضة؛ لكثرة ما أثر عن البلغاء والكتّاب من توقيعات إلا أننا نفتقد في التوقيعات لكثير من الشرح والتوضيح لبيان المناسبات التي أملتها وقيلت فيها – ولا تزال التوقيعات – على ما أجري من دراسات – تفتقد لكثير من الدراسة الموضوعية والفنيّة.

لذا نوصي في ختام هذا البحث بعودة التوقيعات لما كانت عليه من بلاغة وازدهار في عصرها الذهبي، وأن توظف في الشرح على المعاملات في الإدارات الحكومية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل..

المصادر والمراجع

١. الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن سعيد الأندلسي (محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني) دار الكتب العلمية –بيروت، ط. أولى، ١٤٢٤م.

٢. إحكام صنعة الكلام، لأبي القاسم الكلاعي (محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي)، ت: محمد رضوان الداية، دار الثقافة – بيروت،١٩٦٦م.

٣. أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، لمجهول، مكتبة المثني –بغداد١٩٦٤م، وطبع في مطبعة ربد– نير بمدريد ١٢٨٤ه– ١٨٧٦م.

٤. الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل– بيروت، ١٤١٠ه– ١٩٩٠م.

٥. أساس البلاغة، للزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية– بيروت، ط. أولي ١٤١٩ه–١٩٩٨م.

٦. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، ت: مصطفي السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة ١٤٠١ه–١٩٨١م.

٧. البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، مكتبة الرشد– الدمام، ط. أولي١٤٣٥ه– ٢٠١٤م.

٨. تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي (محمد مرتضي الحسيني الزبيدي)، ت: مجموعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء

بالكويت، وصورت أجزاء منه دار الهداية ودار إحياء التراث، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

٩. تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، لعبدالرحمن بن خلدون، ضبط خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر -بيروت، ط. أولي ١٤٠١ه-١٩٨١م.

١٠. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، دار المعارف- القاهرة، ط. ثامنة ١٩٦٦.

١١. التقديم والتأخير في فن التوقيعات الأدبية دراسة بلاغية تحليلية (كتاب العقد الفريد نموذجًا) أ. ابو عجيلة السايح عامر، د. أشرف حسن محمد حسن، كلية اللغات- جامعة المدينة العالمية- ماليزيا، مجلة كلية الآداب، ع٢٩، ج٢، لسنة ٢٠٢٢م.

١٢. التوقيعات الأندلسية في عصر الخلافة (٣١٦:٤٢٢)، دراسة موضوعية فنية، د. أحمد محمد عطية عبد الهادي، بحث في مجلة اللغة العربية بإيتاي البارود، ع٣٥.

١٣. التوقيعات الأندلسية (نشأتها وتطورها في العصر الأندلسي)، للباحث: أحمد رفيع، مجلة أقلام الهند، العدد الثالث السنة الثانية يوليو - سبتمبر، ٢٠١٧م.

١٤. التوقيعات الشعرية في الأندلس دراسة بين الأسس الموضوعية وقواعد الفن، د. محمود صبحي شاهين، بحث منشور في حولية كلية

اللغة العربية- جرجا، جامعة الأزهر، العدد٢٤، الجزء الثاني عشر، لعام٢٠٢٠.

١٥. التوقيعات الشعرية في العصر العباسي دراسة موضوعية فنية، د. محمود صبحي شاهين، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية- الزقازيق، العدد ٣٩ لعام٢٠١٩م

١٦. التوقيعات من المنظور البلاغي، للباحث حسن بنيخلف، على موقعhttps://nayassir.worldpress.com/2020/12/07

١٧. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، للحميدي (أبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي)، الدار المصرية – القاهرة ١٩٦٦م.

١٨. جمهرة رسائل العرب في عصور العربية، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية –بيروت، د.ت

١٩. الحلة السيراء، لابن الآبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي)، دار المعارف –القاهرة، ط. ثانية ١٩٨٥م

٢٠. الحيوان، للجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط. ثانية١٤٢٤ه

٢١. خاص الخاص، لأبي منصور الثعالبي (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، ت: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة –بيروت، د.ت

٢٢.خِزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجة الحموي (تقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله)، ت: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، دار البحار –بيروت، الطبعة الأخيرة ٢٠٠٤م.

٢٣.ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، ت: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف – القاهرة، ط. ثالثة.

٢٤.ديوان الحطيئة، شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، ت: نعمان أمين طه، ط. أولي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي بمصر ١٣٧٨ه- ١٩٥٨م.

٢٥.ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري، ت: شاكر العاشور، مراجعة: محمد جبار المعيبد، دار الطباعة الحديثة بالعراق، وساعدت في نشره وزارة الإعلام ط. أولي ١٩٧٢م.

٢٦.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنترينى (أبي الحسن علي بن بسام)، ت: د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب- ليبيا –تونس، ط. أولي ١٩٨١م.

٢٧.شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، لعبد الرحمن البرقوقى، المطبعة الرحمانية بمصر١٣٤٧ه- ١٩٢٩م.

٢٨.شرح ديوان المتنبي، للواحدي النيسابوري (أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن على)، د. ط، د.ت

٢٩.الصاحب بن عباد الوزير الأديب العالم، د. بدوي بطانة، مطبعة مصر- القاهرة ١٣٨٣ه-١٩٦٣م.

٣٠. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري)، دار الكتب العلمية- بيروت.

٣١. الصحاح، للجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط. رابعة ١٩٩٠م.

٣٢. الصناعتين (الكتابة والشعر)، لأبي هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران)، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية -بيروت،١٤١٩ه

٣٣. طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، د. عامر محمود ربيع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها -جامعة مؤتة، المجلد١٧، العدد٣، لسنة٢٠٢١م

٣٤. العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (أبي عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدربه بن حبيب)، در الكتب العلمية -بيروت، ط. أولي ١٤٠٤ه.

٣٥. علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار- القاهرة، ط. ثالثة١٤٣٤ه- ٢٠١٣م.

٣٦. كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (عمرو بن تميم)، ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال

٣٧. فن البلاغة، د. عبد القادر حسين، عالم الكتب- بيروت، ط. ثانية١٤٠٥ه- ١٩٨٤م.

٣٨.فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، د. حمد بن ناصر الدخيل، بحث منشور في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.

٣٩.فن التوقيعات في النثر العربي، للباحث: طارق حسين علي، بحث منشور في مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد (١٨)، العدد (١)، لسنة ٢٠٢٢م.

٤٠.فن التوقيع ومنزلة الصاحب بن عباد فيه، بحث منشور في مجلة العميد، لمجموعة من الباحثين، موسي عربي وزهراء فتاح هاشمي داوود رضا، لسنة ٦، مج٦، ع٢٢ لعام٢٠١٧م.

٤١.فن الطباق في أدب التوقيعات، د. منيرة فاعور، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق، المجلد (٣٠)، العدد (٢،١) لسنة ٢٠١٤م.

٤٢.قراءة في فن التوقيعات العربية وايجازه قراءة نموذجية للعصور المختلفة، للباحث: رفيع احمد، السنة الثالثة العدد الثاني (أبريل- يونيو ٢٠١٨م)، دراسات ومقالات.

٤٣.قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ – القاهرة، ط، اولي ١٤٣٢ه _ ٢٠١١م.

٤٤.لسان العرب، لابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي)، دار المعارف –القاهرة، تحقيق مجموعة من المختصين

٤٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد)، ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر-القاهرة

٤٦. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل مهندس، مكتبة لبنان- بيروت، ط. ثانية ١٩٨٤م.

٤٧. المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية- القاهرة، ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م.

٤٨. المغرب في حلي المغرب، لابن سعيد المغربي الأندلسي (أبي الحسن علي بن موسي)، ت: د. شوقي ضيف، دار المعارف- القاهرة، ط. ثالثة، ١٩٥٥م

٤٩. مقاييس اللغة، لابن فارس (أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني)، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.

٥٠. المقتبس من أنباء الأندلس، لابن حيَّان القرطبي (حيَّان بن خلف بن حسين بن حيَّان الأموي بالولاء)، ت: د. محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-القاهرة،١٣٩٠ه

٥١. من النقد التطبيقي (قراءات تحليلية ناقدة في أدب الجاهلية والإسلام)، د. عبد المجيد الإسداوى، مكتبة المتنبي- الدمام، ط. أولي١٤٢٨ه-٢٠٠٧م

٥٢. النثر الفني في العصر العباسي، هاشم مناع ياسين، دار الفكر العربي- بيروت، ط. أولي ١٩٩٩م.

٥٣. نفح الطيب، للمقري (محمد عبد الغني حسن المقري)، ت: د. إحسان عباس، دار صادر- بيروت ١٣٨٨ه- ١٩٦٨م.

٥٤. الوافي بالوفيات، للصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله)، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفي، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠ه- ٢٠٠٠م.

٥٥. الوزراء والكتاب، لابن عبدوس الجهشيارى، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي- مصر، ط. أولي١٣٥٧ه- ١٩٣٨م.

٥٦. وفيَّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان البرمكي الإربلي (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر) ت: إحسان عباس، دار صادر -بيروت ١٩٩٤م.

٥٧. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور للثعالبي (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل)، ت: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية -بيروت، ط. أولي ١٤٠٣ه-١٩٨٣م